

أدب وفن

مجلة الثقافة الوطنية الديمقراطية

سبتمبر ٢٠٠٠ - العدد ١٨١



- الحسبة: هل لها أصل في تشريع القرآن الكريم
- الحسبة: بين الدولة المدنية والدولة الدينية
- طالبان: الدين.. الوطن.. المخدرات
- جان جينيه: كنت طوال حياتي «ضد»
- الشيخ إمام: جاتكو فضيحة ياطبقة سطحية



أدب وفن

مجلة الثقافة الوطنية الديمقراطية
شهرية يصدرها حزب التجمع الوطني التقدمي الوحدوي
العدد ١٨١ - سبتمبر ٢٠٠٠



رئيس مجلس الإدارة: د. رفعت السعيد
رئيس التحرير: فريدة النقاش
مدير التحرير: حلمي سالم
سكرتير التحرير: مصطفى عباده

مجلس التحرير: إبراهيم أصلان / د. صلاح
السروي / طلعت الشايب / غادة نبيل / كمال
رمزي / ماجد يوسف



المستشارون : د. الطاهر مكى / د. أمينة رشيد/
صلاح عيسى / د. عبد العظيم أنيس
شارك في هيئة المستشارين ومجلس التحرير الراحلون : د. لطيفة الزيات/
د. عبد المحسن طه بدر / محمد روميش / ملك عبد العزيز.

لوحة الغلاف والرسوم الداخلية للفنان الكبير: **جودة خليفة**

التنفيذ الفني للغلاف : أحمد السجيني

(طبع شركة الأمل للطباعة والنشر) .

أعمال الصنف والتوضيب الفني : تسرين سفيدي إبراهيم

المراسلات : مجلة أدب ونقد ٦ شارع كريم الدولة / ميدان طلعت حرب . الأهالي

القاهرة - ت : ٢٩ / ٢٨ / ٥٧٩٦٢٧ فاكس : ٥٧٨٤٨٦٧

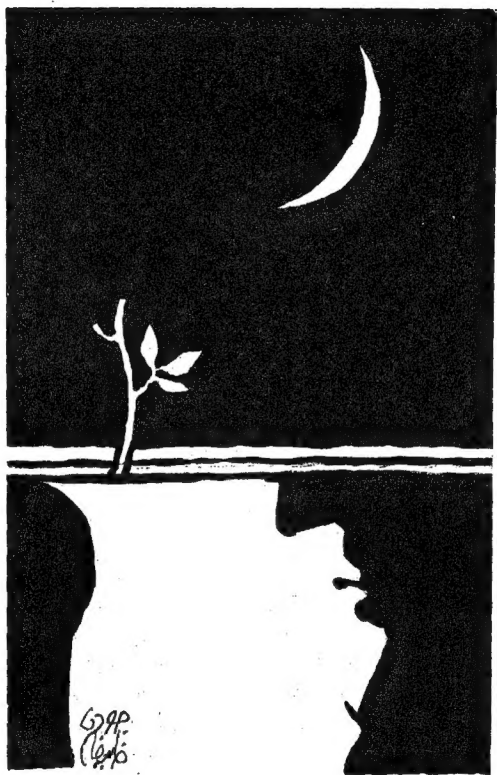
الاشتراكات لمدة عام : داخل مصر ٤٠ جنيها / البلاد العربية ٣٠ دولاراً - أوروبا

وأمريكا ٦٠ دولاراً باسم الأهالي - مجلة أدب ونقد . الأعمال الواردة

إلى المجلة لا ترد لأصحابها سواء نشرت أو لم تنشر .

الفهرس

- أول الكتابة/ المحررة/ ٥
- الحسبة: هل لها أصل فى تشريع القرآن/ د. أحمد صبحى منصور/ ١١
- الديوان الصغير :
- الحسبة بين الدولة المدنية والدولة الدينية/ مركز المساعدة القانونية/ ٣٣
- صلاح محسن: الاعتراف سيد الأدلة/ حلمى سالم/ ٤٧
- نقد العقل الإسلامى: متى وكيف؟/ أيمن عبد الرسول/ ٥٤
- طالبان: الدين، الوطن، المخدرات/ عرض: أسامة الرحيمى/ ٦٩
- جان جنينيه فى حديث غير معروف/ كنت طيلة حياتى ضد/ ٧٧
- الذكرى الخامسة لمغنى الشعب: الشيخ إمام/ أشرف الصباغ/ ٨٩
- جر شكل: لابد أننى شيوعية/ غادة نبيل/ ٩٧
- جر شكل: سر الخسة/ ماجد يوسف/ ١٠٣
- رسالة المغرب: الرباط والمهرجان والشيخ إمام/ نورا أمين/ ١٠٨
- فن تشكىلى: الفن والآلة الإلكترونية/ أشرف إبراهيم/ ١١٣
- متابعات نقدية: مصطفى عطية جمعة/ محمد عبد الحميد الدفدى/ شريف صالح/ ١١٩
- أصوات جديدة: ضراوة المبتسم/ نصوص: وليد طلعت/ إيهاب خليفة، حنان جودة، ميرفت العزوى، محمد داود، محمد طلبية، عمرو النوساتى/ تقديم: مزيد أبو سعدة/ ١٢٢
- شعر: ييجرب المشى على رجل واحدة/ مسعود شومان/ ١٥١
- شعر: الطريق/ جمال راغب الدربالى/ ١٥٦



أول الكتابة

نواصل في هذا العدد ما كنا قد بدأناه في أعدادنا الثلاثة الأخيرة عن حرية الفكر والتعبير والاعتقاد والقيود التي يسعى البعض لتكبيها بها باسم الدين ، والحسبة من الزوايا الدينية والقانونية هي موضوع هذا العدد الرئيسي لأنها أصبحت سلاحاً أخذ يشهره الظالميون ودعاة الانغلاق في الماضي وأصحاب الجمود الفكرى والدينى فى وجه الاستنارة والتفتح وحرية التعبير حتى أصبح العرب عرضة لعملية إفقار واسعة النطاق لإبداعهم الأدبى والفنى إضافة إلى تدنى اسهامهم فى الإبداع العلمى والتقنى العالمى رغم كل المظاهر الخارجية سواء كان من هذه المظاهر وسائل النقل العملاقة التى تستخدمها أو الاقمار الصناعية التى يصنعها لنا الآخرون ونكتفى بإلصاق أسمائنا عليها وتسخيرها لنقل المواد الدعائية الفجة التى تجعل العالم يهزأ بنا، ونطلق على هذه المهزلة اسم السيادة الاعلامية.

وننشر دراسة للدكتور « أحمد صبحى منصور » وهو أزهرى فصلته المؤسسة بسبب جرأته العلمية يرد فيها على هذا السؤال : الحسبة : هل لها أصل فى تشريع القرآن ؟.

ومثلما فعل الباحث والمفكر الإسلامى جمال البنا الذى نشرنا له قبل عديدين دراسة عن حد الردة معتمدا على القرآن الكريم ومبيناً أنه لا وجود إطلاقاً لمثل هذا الحد فى القرآن والسنة ، يستند « منصور » أيضاً إلى القرآن أساساً فى الرد على سؤاله .. أى على الكتاب الذى هو أصل الإسلام المحفوظ حتى قيام الساعة

تتجمع أحكام الفقهاء عن الحسبة فى قضايا أساسية هى الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر ، ومن خلالها يتدخل المحتسب الرسمى أو المتطوع فى حياة الآخرين وعقائدهم وسلوكياتهم العادية والتعبدية، وقد يصل هذا التدخل إلى العقوبة، وقد تصل هذه العقوبة إلى القتل والتفريق بين المرء وزوجته ،

ويتطرف بعضهم فلا يعطى المسلم المتهم بالزندقة أو الخلاف فى رأى حق المحاكمة بل يقتل حتى وإن أعلن توبته ..

وكأنه يصف ما يحدث فعلا الآن فى عدد يتزايد من البلدان الإسلامية حيث تجرى ملاحقة المفكرين والكتاب والمبدعين وقتلهم كما حدث فى مصر والجزائر ، وفى اليمن وليبنان ، فى بنجلاديش وإيران . حيث جعلوا من الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر غطاء تشريعيا للحسبة التى تعود إلى تشريعات العصر العباسى فى القرون الوسطى ولم تعرفها دولة النبى أو الخلفاء الراشدين ، حيث كانت القاعدة العامة وما تزال فى القرآن هى « الدعوة بالحكمة والموعظة الحسنة ، وأن يكون الجدل بالتي هى أحسن » وهو ما دعا إليه فى كل الأحوال مثقفو التنوير والديمقراطيون بعامة وما دعا إليه الفكر النقدي دائما ..

ويؤكد الباحث أنه طبقا للقرآن لا يصح للمؤمن أن يتهم أحدا بالكفر حتى لو حمل السلاح ضد المسلمين ، ولا يجوز للأنبياء أنفسهم الحكم على الناس واتهامهم بمن فى ذلك المشركون فذلك لله وحده فهو الإله الغفور الرحيم الذى ساوى بين البشر جميعا وقال عنه « غاندى » ، كما تسوق النص زميلتنا الشاعرة « غادة نجيل » التى لابد أن نحقق !!! إذا كانت حقا شيوعية.

« الله هو الديمقراطي الأعظم لأنه أعطانا حرية أن نؤمن به أو لا نؤمن »

كذلك فإنه لا يجوز لبشر استتابة إنسان أو إتهامه بالردة فذلك شأنه مع الله وحده ، وليس لبشر - حتى النبی - أن يكون واسطة بين الله تعالى وعبيده فى موضوع التوبة .

ولعل أخطر ما يسوقه لنا هذا البحث فى معرض الحديث عن التفريق بين الزوج وزوجه وهو غير الجائر إسلاميا حتى لو كان أحد الزوجين مشركا ، وسوف أسوق النص كاملا لأهميته البالغة :

« تذكر كتب السيرة أن ابنين لأبى لهب كانا على وشك الزواج ببنتين للنبي ، ثم تركاهما بتأثير أبى لهب وأم جميل ، وتذكر السيرة أيضا أن زينب بنت النبی تزوجت من مشرك بلغ من إخلاصه لعقيدته أنه اشترك مع المشركين فى موقعة بدر ، ثم أسره المسلمون ، وبعثت زوجته بنت النبی

بمعقد لتفتدى به زوجها من أبيها إلى المدينة ، أى أنها بقيت مع زوجها فى مكة ، ولم تتركه لتهاجر مع أبيها إلى المدينة مع إسلامها ، ثم تركت زوجها فيما بعد وهاجرت ثم لحق بها زوجها مؤمناً والمستفاد من ذلك أن الزواج شريعة الله بغض النظر عن العقائد وأنه ليس فى تشريع الإسلام التفريق بين الزوجين بسبب العقيدة إلا إذا اختارا ذلك وافترقا عن بعضهما بمحض إرادتهما .»

ورغم هذه الوقائع الدامغة ، بل ورغم أن الباحث فى علوم القرآن نصر حامد أبو زيد أكد أكثر من مرة أنه مسلم مؤمن بكتاب الله ورسوله فباسم ارتداده أو شركة صدر حكم التفريق بينه وبين زوجته «ابتهال يونس» بدعى أنه لا يجوز للمسلمة أن تتزوج مشركا ، ويقاضى «نصر» وزير العدل فى ذلك وما تزال القضية منظورة أمام المحاكم.

وفى الديوان الصغير نص الدراسة التى كان مركز المساعدة القانونية لحقوق الإنسان قد أجراها حول الحسبة من الزاوية القانونية وفى ارتباطها بحقوق الإنسان وهى عن «الحسبة بين الدولة المدنية والدولة الدينية» «فدعى الحسبة تعكس فى حقيقتها رؤية طائفية تنهض على التمييز بين المواطنين على أسس دينية ، كما تقيم من الناحية الأخرى تمييزا على أساس من الجنس ضد المرأة سواء كانت مسلمة أم غير مسلمة .

والحسبة سلاح ضد حرية المواطنين فقد قام الحكام المماليك « بمنع المصريين من كثرة الكلام لما اشتبهوا به من السخرية بالملك وسلاطينهم » وفى نظام الحسبة نجد أن «فكرة النظام العام العلمانية تتحول إلى فكرة حقوق الله ، وهى فكرة دينية عقائدية ، فالأولى تخاطب جميع المواطنين بغض النظر عن موقفهم من المعتقدات الدينية ، والثانية تخاطب أتباع دين محدد ولا تخاطب جميع المواطنين ، وهذا الإحلال لا يستقيم مع حقائق العصر إلا إذا نزعنا الرداء الدينى لفكرة حقوق الله ، أو جردنا غير المسلمين من حق المواطنة .»

ولا تصلح المادة الثانية من الدستور التى تنص على أن الشريعة الإسلامية هى المصدر الرئيسى للتشريع لتكون سندا بذاتها لدعاوى الحسبة

لأن المحكمة الدستورية العليا أصدرت حكماً تاريخياً يقول إن نص المادة الثانية من الدستور غير نافذ بذاته ويتضمن في حقيقته خطاباً موجهاً إلى المشرع لا إلى الكافة.

ولكن الحكومة المصرية بدلا من أن تستند إلى هذا الحكم القوي لإلغاء دعوى الحسبة تماما أحالت الحق في تحريكها إلى النيابة العامة ليبقى سلاح الحسبة عنصر تهديد دائماً للكتاب والمفكرين كما حدث في قضية الكاتب صلاح الدين محسن الذي يقدم لنا الزميل حلمي سالم تقريراً عنها في هذا العدد وذلك بعد صدور حكم بحبسه لمدة ستة أشهر مع وقف التنفيذ بدعوى الإلحاد.

ويقدم لنا «أيمن عبد الرسول» الذي تفخر أدب ونقد بأنها قدمته للحياة الفكرية باحثاً وأعداً قراءة في عمل مفكر جزائري الأصل مقيم في فرنسا ويكتب بالفرنسية وقد تخصص في الإسلاميات وهو «محمد أركون» الذي ننوئ أن نقدم كتبه تباعاً لأهميتها البالغة ليتعرف قارئ «أدب ونقد» على عالمه وآليات تفكيره النقدي العلمي في نقد كل من الخطاب الإسلامي السائد والاستشراقى المتعالى سعياً إلى تأسيس ما أسماه بالقراءة التزامنية للقرآن تنظر إليه في كليته وهي تستعيد لحظات تلقى الوحي الأصلية وسياقاتها، مع ضرورة أن يتسلح الباحث بمعرفة شاملة وعلمية بالتراث ويطرق الاجتهاد الكلاسيكية قبل أن يحدث قطيعة معها، خاصة أن ممارسات التفسير الإسلامى التقليدى مليئة بالثغرات والشكوك والتناقضات والاختلال المنطقي والضعف.

ويستطيع «محمد أركون» أن يقدم اجتهاده العلمى والفلسفى فى مناخ آمن فى باريس يحمى الفكر والاعتقاد والاختلاف، ويحتفى بالبحث الخلاق دون إكراه أو تكفير أو تعسف، إنه المناخ المواتى لإبداع العلم وابتكارات العلماء، المناخ الذى يحث حثاً على أعمال الخيال بلا حدود فيكتب الأدباء ويبعد الفنانون وهو فارق جوهرى بين حالتين حالة العمل تحت التهديد والضغط فى البلدان الإسلامية والعربية التى يتعرض فيها الفكر للقمع والوأت، وحالة العمل فى بلد متقدم لا يكون على العلماء والباحثين

والمفكرين فيه أن يخوضوا مرتين وثلاثاً نفس المعارك كما يحدث في بلادنا ،ليس ذلك فحسب وإنما يدفعون أيضاً ثمن شجاعتهم الفكرية غالباً إما قتيلا أو مطاردة أو إسكاتها للصوت وتعطيلا للطاقت الفكرية إلى إجتراح ما سبق انتاجه تطلعا للسلامة، وإشاعة الجبن الفكرى والفقر المعرفى لتظل حياتنا الفكرية والثقافية تفتت على فتات ما ينتجه الآخرون وتتحلل تحت وطأة الركود والحصار.

إن سيناريو متخيلاً يتصور أن « محمد أركون » قد واصل العيش فى الجزائر وبدأ مسيرته العلمية هناك وبقي بها حتى الآن سوف يقودنا حتما لى نتيجة مأساوية، فإن مصيره فى هذه الحالة لم يكن لتصبح بأفضل من مصير المائتى مثقف الذين اغتالهم رصاص الازهابيين وسكاكين الظلاميين ، فإذا كان الذين قتلوا مائتين فإن آلاف مؤلفة من المثقفين قد انطروا على أنفسهم أو صمتوا ولم تكتمل مشاريعهم العلمية كما كانوا يحملون لقد تحولت بلادنا إلى مقابر للأحلام فليرع الله « محمد أركون » حيث هو ليحلم وينتج ويضئى الزوايا المظلمة فى العقل الإسلامى بجسارة من لا يعيش تحت التهديد.

هل أكتب ببأس ؟ وهل يتضمن كلامى دعوة مبطنة لهجرة البلاد من أجل الحرية فى مكان آخر.
كلا .. وألف كلا.

بل إننى أدعو المؤسسات العلمية والأدبية المساعدة حتى وإن كانت صغيرة أن تواصل عملها بكل اجتهاد وإتقان لرعاية الباحثين الجدد ودعم شجاعتهم الروحية والفكرية ومساعدتهم على الاستمرار والتحمل تصورا . إن « أيمن عبد الرسول » الذى نعمل عليه كثيرا هو مضطر لكى يعيش أن يعمل ضابط أمن يقضى الليل ساهرا فى إحدى المؤسسات الخاصة فى الاسكندرية لحراستها ، ولنا أن نتصور وضع آلاف من الباحثين الشبان الذين يطمحون إلى تقديم مشاريعهم العلمية ولكنهم يعجزون لأنهم وقعوا بين الطاعون والكوليرا على حد تعبير الكاتب الجزائري الراحل « كاتب يس » وهو يتحدث عن عنف العسكريين وفسادهم من جهة وعنفا الجماعة

الإسلامية بوحشيتها من جهة أخرى ونضيف إليها ضعف الموارد المخصصة للبحث العلمي.

سوف نعود مرة أخرى لمناقشة هذا الموضوع الكبير ولنبحث حول إمكانيات المؤسسات الكثيرة في بلادنا ومدى قدرتها على تقديم الحماية والإحساس بالأمان للباحثين والمثقفين عامة وهو ما سوف يدفعنا دفعا إلى مسألة الديمقراطية والحريات العامة.

أما مفاجأة هذا العدد فهي حديث غير معروف للكاتب الفرنسي الاشكالي العظيم «جان جينييه» ،حديث يستعصى على التصنيف مثلما هو قائله ذاته إذ يطرح بجرأة وروح عالية أفكاره وتصويراته التي أثارت وما تزال عواصف لا تهدأ عن الكتابة .. الاستعمار الاستغلال ..معنى الوطن .. القتل .. العزلة .. إلخ.

ما دامت فرنسا - «وطنه» لا تهتم بتلك السياسة التي يسمونها شمال/ جنوب ، ولاتولى مزيدا من الاهتمام بالعمال المهاجرين أو المستعمرات القديمة ، فإن السياسة الفرنسية لا تهمنى فى شئ.

ولعله كان من حسن حظنا وحسن حظ المفكر الجزائري «محمد أركون» أنه هاجر إلى فرنسا طالبا وليس عامل نظافة أو حمالا أو سائقا فما زال المجتمع الطبقي على الصعيد العالمى يفسح- ولو مكانا ضئيلا- لأبناء الطبقة الوسطى بينما ينفي الجماهير العاملة فى الاستغلال الكثيف.

وإن كان جينييه يقول:

«الفرنسيون ليسوا فقراء .. الفقير الحقيقى فى فرنسا هو العامل المهاجر ، الفرنسيون ليسوا فقراء ، إنهم يتمتعون بامتياز كون فرنسا كانت امبراطورية استعمارية»

إنتقدنا بعض أصدقاء «أدب ونقد» أو الغاضبين عليها لأننا أحيانا ما نعبد نشر مادة نقلا عن مطبوعات أخرى ، وتوقفنا طويلا أمام هذا النقد ، لكن إغراء كلمات «جينييه» كان أقوى منه.

الحررة

الحسبة: هل لها أصل فى تشريع القرآن؟

د. أحمد صبحى منصور

مقدمة

القرآن الكريم هو أصل الاسلام المحفوظ إلى قيام الساعة، وهو الحق الذى لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه، تنزيل من حكيم حميد. وخاتم النبيي كانت وظيفته محصورة فى تبليغ هذه الرسالة الالهية «المائدة ٩٢، ٩٩، النحل ٣٥، ٨٢» وكان ممنوعا من إخفاؤها أو تبديلها «الاسراء ٧٣، الشورى ٢٤، يونس ١٥، ١٦» كما كان ممنوعا من أن يزيد حرفا فى هذا الوحي الالهى «الحاقة ٤٤-٤٧» وخاتم النبيين كان مأمورا باتباع هذه الرسالة الالهية القرآنية «الانعام، الاعراف ٣ يونس ١٥، الاحقاف ٩». وهذا الاتباع للقرآن هو سنته الحقيقية أى التطبيق العملى لكتاب الله تعالى. ومن يحب النبي ويؤمن به ويراليه هو الذى يؤمن بأن النبي عليه السلام قد قام بتبليغ القرآن كما نزل عليه، وأنه عليه السلام لم يخالف القرآن فى أقواله، وأنه عليه السلام طبق أوامر القرآن كما هى.

وأصحاب الاهواء هم الذين ينسبون للنبي أقوالا تخالف القرآن. وهم الذين ينسبون له تشريعات ما انزل الله بها من سلطان، وتلك التشريعات والاحكام هى منبع التطرف والتشدد والظلم والارهاب.

بعضهم كان يفعل ذلك بحسن نية مخدوعا بصدق تلك الأقوال، وبعضهم

كان يفعل ذلك عن جهل أو قصد ، ولكن المهم أن واجب من يحب الاسلام أن يبرئ دين الله تعالى ورسوله الكريم من كل من يخالف الكتاب الحكيم.

هذه مقدمة ضرورية لموضوع الحسبة وتشريعاتها وصلاتها بالقرآن الحكيم. ان احكام الفقهاء عن الحسبة تتجمع -تقريباً- فى قضايا اساسية هى الامر بالمعروف والنهي عن المنكر ، ومن خلالهما يتدخل المحتسب الرسمى أو المتطوع فى حياة الآخرين وعقائدهم وسلوكياتهم العادية والتعبدية ، وقد يصل هذا التدخل إلى العقوبة ، وقد تصل هذه العقوبة إلى القتل والتفريق بين المرء وزوجه ، ويتطرق بعضهم فلا يعطى المسلم المتم بالزندقة -أو الخلاف فى رأى- حق المحاكمة بل يقتل حتى وان أعلن توبته . هذه الاحكام الفقهية -التي طبق المسلمون بعضها فى العصر العباسى والمملوكى- هل كان يعرفها عصر النبى عليه السلام ؟ وهل كانت من تشريعات القرآن وسنة النبى وتطبيقه عليه السلام . نرجع إلى الكتاب العزيز نحتكم إليه..

لقد تعامل النبى عليه السلام مع مشركين محاربين ومنافقين متآمرين وطوائف من اليهود والنصارى بالإضافة إلى المؤمنين من أصحابه ، ومن بينهم ضعاف الايمان واقيواء الايمان ، والثابت من القرآن الكريم بل ومن التراث المكتوب فى العصر العباسى أنه عليه السلام لم يعقد محاكمة للتفتيش على عقائد أى شخص مؤمن أو منافق طيلة السنوات التى قضاها حاكماً للمدينة ، ولم يقم باصدار حكم بالتفريق بين رجل وزوجه بتهمة الردة والكفر . هذا مع طول ما عاناه النبى من تأمر المنافقين ومكائدهم القولية والفعلية والتى نزل القرآن يخبر عنها . إذن فان قضية الحسبة واحكامها لم تعرفها دولة النبى فى المدينة بل لم تعرفها دولة الخلفاء الراشدين.

الامر بالمعروف والنهي عن المنكر

لقد جعلوا من الامر بالمعروف والنهي عن المنكر غطاء تشريعيا للحسبة ،

ولكن الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر فى تشريعات القرآن له ملامح مختلفة عن تشريعات الحسبة الفقهية ، فالأمر بالمعروف أمر قولى والنهي عن المنكر نهى قولى ، أى نصح وإرشاد باللسان فإذا أصّر الشخص على رأيه فهذا شأنه طالما لا يمتد ضرره إلى الغير وحقوق الناس فى الدولة والأموال الأغراض ، والله تعالى يقول «يأيتها الذين آمنوا عليكم أنفسكم لا يضركم من ضل إذا اهتديتم إلى الله مرجعكم جميعا ، فينبئكم بما كنتم تعملون : المائدة ١٠٥» أى بعد النصيحة يكون الاعراض عمن يختار الضلالة انتظارا إلى حكم الله تعالى يوم القيامة.

والنبي نفسه أمره الله تعالى أن يتبرأ من عصيان أصحابه ، إذا وقعوا فى عصيان النبي ، وعصيان النبي يوصف بأنه جريمة ، والمنتظر ممن يقع فى عصيان النبي أن يكون متهما بالكفر ، وأن تعقد له محاكم تفتيش ، وأن تحكم المحاكم برده والتفريق بينه وبين زوجه ، حسب تشريع الفقهاء ولكن تشريع الاسلام فى القرآن يقول للنبي عن اتباعه المؤمنين «واخفض جناحك لمن اتبعك من المؤمنين» أى كن هينا لينا متواضعا مع من اتبعك من المؤمنين ، فماذا يحدث إذا عصاه بعض المؤمنين ؟ تقول الآية التالية «فإن عصوك فقل إني بريء مما تعملون : الشعراء ٢١٦» لم يقل «ربه فإن عصوك فاضربهم بالسلاسل والجزازير ، أو اتهمهم بالكفر ، أو فقل لهم إني بريء منكم ، ولكن فقل إني بريء مما تعملون» أي بريء من أعمالهم السيئة ، وليس من أشخاصهم ، وهذه هى حدود الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر ، أمر ونهي باللسان فقط ، وبعده تكون البراءة من العمل السيئ وليس من الشخص المؤمن.

والملمح الثانى فى تشريع الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر أنه ليس وظيفة لطائفة معينة تحتوف الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر رسميا أو تطوعيا ، ولكن المجتمع كله يتواصى بالحق ويتواصى بالصبر ، وذلك ما جاء

فى سورة العصر التى تلخص ملامح المجتمع المسلم، ولذلك يقول تعالى يهيب بالأمّة الاسلاميّة أن تكون كلها أمة تآمر فيما بينها بالمعروف وتتناهى عن المنكر «ولتكن منكم أمة يدعون إلى الخير ويأمرون بالمعروف وينهون عن المنكر وأولئك هم المفلحون: آل عمران ١٠٤» ، فالخطاب للامة جميعا فى هذه الآية وما قبلها وما بعدها ، لان بنى اسرائيل كانوا- فى بعض عصورهم -أمة لا تتناهى عن المنكر ، فاستحقوا اللعن على لسان داود وعيسى عليهما السلام «المائدة ٧٨ ، ٧٩» . وإذا كان بنو آدم -كلهم خطاءين- وخير الخطائين التوابون، فليس منتظرا أن يحترف بعضهم النصيحة للباقيين ويستنكف أن ينصحه أحد وإلا فقد كان ممن ينطبق عليه قوله تعالى «أتأمرون الناس بالبر وتنسون أنفسكم وأنتم تتلون الكتاب أفلا تعقلون: البقرة ٤٤» . وإذن فإن تشريع «الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر» فى القرآن يخالف تشريع الحسبة إذ أن حدود التدخل فى حياة الآخرين لا تتعدى النصح الجميل ، أما فى تشريع الفقهاء فالتدخل يصل إلى درجة العقوبة بالقتل فى الاتهام العقيدى أو الفكرى

فى الجدل الفكرى

وفى عصر النبى كان حوله أصحاب فكر مخالف وعقائد مخالفة من المشركين والنصارى واليهود وكانوا يذهبون للنبى ليجادلوه ، وتلك قضايا فكرية يعتقد كل فريق انه على الحق وان خصومه على الباطل ، فهل كان النبى مسموحا له بأن يتهم أولئك الخصوم بالكفر؟ وماهو المنطق الذى نزل به تشريع القرآن للنبى -ولنا نحن بطبيعة الحال؟ .هناك من يجادل طلبا للعلم ومنهم من يجادل عنادا وبهتانا . والقاعدة العامة أن تكون الدعوة بالحكمة والموعظة الحسنة ، وأن يكون الجدل بالتي هى أحسن «النحل ١٢٥» ، ولكن الذى لا يؤمن بآيات الله لا فائدة من الجدل معه، لذلك يأمر الله تعالى النبى الكريم بالأعراض عنهم إذا جاءوه يجادلونه «وإن جادلوك فقل

الله أعلم بما تعملون ، الله يحكم بينكم يوم القيامة فيما كنتم فيه تختلفون: الحج ٦٨ ، ٦٩ .

وقد وصف الله تعالى أولئك الذين يجادلون في الله بغير علم ولا هدى ولا كتاب منير . الحج ٨٠٢ لقمان ٢٠ « وأوضح أن هدفهم هو الجدل بالباطل لمجرد الهجوم على الحق » الكهف ٥٦ « وأن ذلك هدف شيطاني في حد ذاته لذلك أمر الله تعالى المؤمنين بعدم الجدل معهم حتى لا يكونوا مثلهم ، يقول تعالى « وأن الشياطين ليوحون إلى أوليائهم ليجادلوكم وإن اطعتموهم انكم لمشركون: الانعام ١٢٦ » ، إذن فالجدال بالتى هى أحسن مع من يجادل بالتى هى أحسن ، أما من يظلم الله تعالى ويكذب بآياته فلا بد من الاعراض عنه ، وارجاء الحكم إلى الله تعالى يوم القيامة . وهذا هو تشريع القرآن فى الجدل مع أصحاب الفكر المخالف أو الفكر المعاند ، وليس فيه على الإطلاق اتهام بالكفر أو اقامة محاكم تفتيش .

الجدال مع أهل الكتاب

وبعض أصحاب الفكر الدينى المخالف كانوا من أهل الكتاب وقد شرع الله تعالى الا يكون الجدل معهم الا بالحسنى ما عدا الظالمين منهم فينبغى الاعراض عنهم بعد أن يقال لهم ان الاله الذى نعبده ويعبدونه اله واحد ونحن له مسلمون ، يقول تعالى « ولا تجادلوا أهل الكتاب الا بالتى هى أحسن إلا الذين ظلموا منهم وقولوا آمنا بالذى أنزل إلينا وأنزل إليكم وإلهنا وإلهكم واحد ونحن مسلمون : العنكبوت ٤٦ » أى الاعراض عنهم الاحسان فى القول والخطاب فى القرآن الكريم قد يشمل خطاب الله تعالى للبشر فيما يخص ذاته العلية وما يدعى البشر تشأتها وغير ذلك ، ويشمل أيضا التشريع للمؤمنين بما ينبغى أن يكون عليه خطابهم وتعاملهم مع المخالفين فى العقيدة . فالله تعالى من حقه أن يقرر أنه لا اله الا هو وأنه لا يشرك فى حكمه أحداً أنه لم يلد ولم يولد وليس له من المخلوقات من يشبهه

أو يكون كفواً له، جل وعلا.. ومن حقه تعالى أن يرد على من يعتقد بأن له شريكاً أو زوجة ولداً، ومن حقه تعالى أن يصفهم بالكفر والشرك والضلال، وهذا حقه في قضية تمس ذاته العلية المقدسة جل وعلا. ولذلك انزل كتابه القرآن العظيم في تقرير الحق كي يكون حجة على الخلق.. ولكنه تعالى في نفس الوقت شرع للمؤمنين به أن يجادلوا بالتي هي أحسن مع خصومهم في العقيدة وأن يعرضوا عن الظالمين منهم، وأن يرجئوا الحكم إلى الله تعالى وينتظروا الحكم يوم القيامة.

وعلى سبيل المثال أوضح رب العزة جل وعلا القول الحق في عيسى عليه السلام وأنه يشر مثل آدم، خلقه الله تعالى من تراب ثم قال كن فكان، وبعد آيات عديدة تمدت عن ميلاد عيسى وبشريته ودعوته ووفاته، نزل تشريع القرآن الحكيم للنبي عليه السلام فيمن يأتي للنبي يجادله في طبيعة المسيح بما يخالف الحق القرآني، يقول تعالى «فمن حاجك فيه من بعد ما جاءك من العلم فقل تعالوا ندع أبناءنا وأبناءكم ونساءنا ونساءكم وأنفسنا ونفوسكم ثم نبهل فنجعل لعنة الله على الكاذبين: ال عمران ٦١» بعد توضيح الحق في قضية المسيح لم يقل تعالى للنبي- في هذه الآيات المدنية- أنهم إذا جاءوك يجادلوك في المسيح فقل لهم أنتم كفرة، وإنما دعاهم إلى المناهضة بأن يأتي الفريقان الأبناء والنساء ثم يبتهل كل فريق إلى الله تعالى بأن تكون لعنة الله على الكاذب من الفريقين.. وهذه أقصى درجة من إرجاء الحكم إلى الله بأن يعلن الفريق الكاذب، دون أن يصف نفسه بأنه على الحق ودون أن يصف الآخرين بأنهم الضالون.. هذا هو تشريع القرآن لنبي الإسلام عليه السلام.

لم يقل لهاقرأ عليهم الآيات التي تصف بالكفر من يقول بأن الله هو ثالث ثلاثة، أو بأن الله هو المسيح ابن مريم، لأن هذه الآيات كلام الله وحكمه، وهذا هو خطابه مع عبده والذي لا يشارك فيه أحداً، أما خاتم



GAP
CLUB

النبيين نفسه فهو مأمور بإرجاء الحكم إلى الله تعالى حتى فيمن يجادله في طبيعة المسيح بما يخالف القرآن ، وبالتالي فإنه لا يجوز لمؤمن أن يبيع لنفسه خصوصية في اتهام الآخرين وتكفيرهم ، لأن النبي عليه السلام نفسه لم يعط هذه الخصوصية . كل ذلك في نطاق التعامل مع الفكر المعاند للإسلام.. فماذا مع المشركين المحاربين بالإسلام حيث تمددت مواقفهم وهم يبذلون النفس والنفيس في سبيل عقيدتهم التي تخالف الإسلام ؟ هل يجوز للنبي أن يحكم بكفرهم وكل الدلائل على كفرهم واضحة جلية ؟

مع المحاربين

إن تشريع القتال في الإسلام يكون فقط كرد الاعتداء بمثله وفي الدفاع المشروع ، وفي إحدى الغزوات الدفاعية انهزم المسلمون ، وكانت غزوة أحد التي أصيب فيها النبي بجروح مختلفة حتى أشيع أنه مات قتيلًا ، وغضب النبي لما حدث فقال: « لا يفلح قوم ثعلبوا بنيهم هذا » ، وفي موقف كهذا من المسموح لأي شخص أن يقول مثل ذلك وأكثر ، ولكن ذلك ليس مسموحا في شريعة الله للنبي وللمؤمنين ، لأن الحكم بالفلاح والخسران مرجعه لله تعالى وحده ، لأن الفلاح للمؤمنين والخسران للكافرين ، ولا يصح للمؤمن أن يتهم أحداً بالكفر حتى لو حمل السلاح ضد المسلمين ، وهكذا أنزل قوله تعالى للنبي « ليس لك من الأمر شيء أو يتوب عليهم أو يعذبهم فإنهم ظالمون ، وله ما في السموات وما في الأرض يغفر لمن يشاء ويعذب من يشاء والله غفور رحيم : آل عمران ١٢٨ ، ١٢٩ » ، فالنبي ليس له من الأمر شيء لأن الأمر كله لله تعالى ، وإليه تعالى يرجع الأمر كله . وهو الذي يتوب عليهم إذا شاء أو يعذبهم إذا أراد على ظلمهم ، والنبي لا يعلم الغيب ، ولا يعلم ماذا سيحدث في المستقبل ، لأن علم ذلك عند علام الغيوب جل وعلا ، وقد مرت الأيام وأسلم خالد بن الوليد بطل المشركين في غزوة أحد ، وسماه النبي نفسه سيف الله المسلول . ومرت الأيام وأسلم أبو سفيان زعيم المشركين في غزوة أحد ،

وأبلى بلاء حسنا في موقعة اليرموك .. أى من تراه اليوم معاندا وتحكم عليه بالكفر ، ماذا يدريك ما سيحدث له فى الغد ؟ ربما سيكون أفضل منك عند الله تعالى. ثم أن الأنبياء وهم صفوة الخلق ليس عليهم إلا البلاغ فقط وليس لهم الحكم على الناس أو اتهامهم، فذلك لله وحده وكل ما هناك: أن الله تعالى أمر النبى الكريم بأن يقول لخصومه ، «أعملوا على مكانتكم انا عاملون وانتظروا إنا منتظرون» ، ثم يقول له ربه جل وعلا «ولله غيب السموات والأرض وإليه يرجع الأمر كله : هود ١٢١».

مع المنافقين

وقد يقول بعضهم أن النبى حين كان حاكما على المدينة لم يكن له سلطان على اعدائه المشركين وأهل الكتاب .. فربما يكون من حقه كحاكم ونبى أن يحاكم خصومه المنافقين .. ولكن تشريعات القرآن واحدة لا استثناء فيها ، وربما سمو التشريع القرأنى يتجلى أكثر فى التعامل مع المنافقين الخاضعين للدولة الإسلامية . كان المنافقون نوعين ، نوعا أومن النفاق وكنتم مشاعره بحيث لم تظهر من أقواله أو من أفعاله ما ينبئ من حقيقة كراهيته للإسلام ، بهذا الصنف توعدده الله بالعذاب فى الدنيا والآخرة، ولم يكن للنبى علم بهم، يقول تعالى «وممن حولكم من الأعراب منافقون ومن أهل المدينة مردوا على النفاق لا تعلمهم نحن نعلمهم سنعذبهم مرتين ثم يردون إلى عذاب عظيم: التوبة ١٠١» .

النوع الآخر من المنافقين أظهر كراهية للإسلام فى أقوال وأفعال وحركات عدائية وتآمر وكيد للنبى والمسلمين، وكان تآمرهم يبلغ درجة الخيانة العظمى حين كانوا يتحالفون مع اعداء الدولة أو يتآمرون معهم ضد المسلمين وقت الحرب. وكان ذلك فى نطاق المسموح طالما كانوا تحت سطوة الدولة ولم يرفعوا ضدها السلاح ولم تخرج حركاتهم عن مجرد زوايع وتحركات قولية .. أما إن كانوا خارج حدود الدولة مثل الأعراب المنافقين

أو هموا بخمل السلاح ضدها هنالك فقط تكون المواجهة الحربية معهم حسبما جاء في القرآن «النساء ٨٨ الأحزاب ٦٠» أى أنه كانت للمنافقين كافرين وجماعات حرية المعارضة للدين والدولة كيفما شاءوا .. وكان القرآن ينزل بحكم يكرهم ويفضح تأمرهم ، ولكن يأمر النبى والمؤمنين بالإعراض عنهم اكتفاء بما ينتظرهم من مصير يأتس يوم القيامة اذا لم يتوبوا.

والإعراض عن أقاويل المشركين والمنافقين هو التشريع القرآنى فى التعامل معهم ،وهو تشريع يناقض تماما محاكمتهم أو تكفيرهم أو عقوبتهم أو التفريق بينهم وبين أزواجهم . وهذا الاعراض عن المشركين المعاندين وأقوالهم وافعالهم تشريع ثابت سار عليه النبى والمؤمنون فى مكة مع كفار قريش وفى المدينة مع المنافقين ، ومع اختلاف وضع النبى والمؤمنين بين مكة والمدينة ،ففى بداية الدعوة جاء الأمر بالتبليغ وبالاعراض عن المشركين ، كقول تعالى «فاصدع بما تؤمر وأمرض عن المشركين : الحجر ٩٤» ، خذ العفو وأمر بالعرف وأعرض عن الجاهلين : الاعراف ١٩٩ وتكرر ذلك فى آيات أخرى» الانعام ١٠٦ ، «السجدة ٣٠» «النجم ٢٩» .

ونزل هذا التشريع بالاعراض عن اذى الكفرة ليكون تشريعا عاما للمؤمنين حتى إذا خاطبهم الجاهلون قالوا سلاما ، وإذا مروا باللغو مروا كراما «الفرقان ٦٣ ، ٧٢» ، وإذا سمعوا اللغو اعرضوا عنه وقالوا لنا اعمالنا ولكم اعمالكم سلام عليكم لا نبتغى الجاهلين: القصص ٥٥» .

والآيات الكريمة السابقة نزلت فى مكة «وبعد أن هارت للمؤمنين دولة وقوة لم يتغير التشريع بل جاءته مصداقية التطبيق الواقعى فى التعامل مع المنافقين إذ كانت الآيات تنزل تأمر بالاعراض عن اذى المنافقين وتأمرهم وأقوالهم وتحركاتهم ، ونعطى أمثلة قرآنية:

- كان المنافقون يتركون السلطة القضائية للدولة الاسلامية ويحتكمون إلى غيرها ويرفضون الدوة بالتحاكم أمام النبى ويصدون عنه صدودا ،

وينزل القرآن يأمر النبي بالأعراض عن أولئك المنافقين ويقول تعالى
« أولئك الذين يعلم الله ما فى قلوبهم فأعرض عنهم : النساء ٦٣ ».

- وبعضهم كان يدخل على النبي يقدم له فروض الطاعة ثم يخرج من عنده ليتأمر وينسب للنبي أحاديث لم يقلها ، وينزل القرآن يفصح تأمرهم ويأمر النبي بالإعراض عنهم، يقول تعالى « ويقولون طاعة فإذا برزوا من عندك بيت طائفة منهم غير الذى تقول والله يكتب ما يبيتون فأعرض عنهم وتوكل على الله : النساء ٨١ ».

- وكان المنافقون يعقدون مجالس للاستهزاء بآيات الله ودينه ورسوله وكان مناخ الحرية فى دولة النبي يسمح لهم بهذا ، بل كان النبي يحضر أحيانا تلك المجالس حيث يخوض المنافقون مع فى آيات الله ، ونزل التشريع القرآنى يأمر النبي بالأعراض عن الجلوس مع المنافقين حين يخوضون فى آيات الله ، فإذا تحدثوا فى موضوع آخر فلا بأس بأن يعود ليجلس معهم ، يقول تعالى « وإذا رأيت الذين يخوضون فى آياتنا فأعرض عنهم حتى يخوضوا فى حديث غيره وإما ينسينك الشيطان فلا تقعد بعد الذكرى مع القوم الظالمين : الانعام ٦٨ ».

إذن هو تشريع بالأعراض عنهم وليس بمنعهم من الخوض فى آيات الله ، وهو تشريع بعدم الجلوس معهم حين يخوضون فى آيات الله فقط ، وليس بتحريم الجلوس معهم على الاطلاق . ولكن بعض المؤمنين استمر يحضر هذه المجالس التى يخوض فيها اعداء النبي فى آيات الله ، فنزل قوله تعالى يذكرهم بالتشريع السابق الذى نزل فى القرآن ويهددهم إن لم يقاطعوا تلك المجالس عندما تخوض فى آيات الله فإن الله تعالى سيعتبرهم كالمنافقين والكافرين. يقول تعالى للمؤمنين « وقد نزل عليكم فى الكتاب أن إذا سمعتم آيات الله يكفر بها ويستهزأ بها فلا تقعدوا معهم حتى يخوضوا فى حديث غيره إنكم إذا مثلهم إن الله جامع المنافقين والكافرين فى جهنم

جميعا: النساء ١٤٠.

وامتثل المؤمنون للتشريع فقاطعوا مجالس الخوض، فكان ان تحرر المنافقون من كل حرج ، وحولوا تلك المجالس إلى كفر صريح واستهزاء بالله ورسوله وكتابه ونزل قوله تعالى للنبي « ولئن سألتهم ليقولن انما كنا نخوض ونلعب قل أبالله وآياته ورسوله كنتم تستهزئون * لا تعتذروا قد كفرتم بعد ايمانكم إن نعف عن طائفة منكم نعذب طائفة بانهم كانوا مجرمين: التوبة ٦٥-٦٦ ».

أى ارجاء الحكم عليهم إلى الله تعالى ، هو الذى يعفو ، وهو الذى يعذب ، أما النبى فقد أمره ربه أن يعرض عنهم وعن ايذائهم له ، وقال له تعالى من قبل فى سورة الأحزاب « ولا تطع الكافرين والمنافقين ودع أذاهم وتوكل على الله: الأحزاب ٤٨ ».

وكان مناخ الحرية يسمح لهم بهذا الايذاء للنبي ويتحمل النبى وينزل القرآن يدافع عن النبى ويقول من المنافقين « ومنهم الذين يؤذون النبى ويقولون هو أذن قل أذن خير لكم : التوبة ٦١ » . وهذا المناخ المتحرر جعل بعض المؤمنين يقع فى إيذاء النبى أيضا فقال تعالى « إن الذين يؤذون الله ورسوله لعنهم الله فى الدنيا والآخرة وأعد لهم عذابا مهينا: الأحزاب ٥٧ » . وقال يحذر المؤمنين من إيذاء النبى « يا أيها الذين آمنوا لا تكونوا كالذين أذوا موسى: الأحزاب ٦٩ » ، وجريمة إيذاء النبى لم يكن لها عقاب وقتوى فى تشريعات الاسلام، وذلك اكتفاء باللعنة والعذاب المهين لمن لا يتوب.

ومن السخرية والايذاء إلى التآمر على النبى والمؤمنين وقت الشدة فى الحروب والغزوات والتقايس عن الدفاع عن المدينة ، ثم قيامهم بإنشاء مسجد الضرار ليكون وكرا للتآمر ، ولم يأمر الله تعالى رسوله بحرق ذلك المسجد ، بل أمره فقط بالآ يقوم فيه بالصلاة ، ويعنى ذلك أنه كان يحضر الصلاة فى ذلك المسجد إلى أن كشف القرآن حقيقته ، والله تعالى

وصف ذلك المسجد بأنهم اتخذوه «ضرازا وكفرا وتفريقا بين المؤمنين وأرصادا لمن حارب الله ورسوله من قبل أى وكر كامل للتخريب ، ومع ذلك فإن الاجراء الوحيد الذى نزل به تشريع القرآن هو قوله تعالى للنبي « لا تقم فيه أبدا » . ولم يعجب هذا التشريع فقهاء العصر العباسى فاخترعوا حديثا يزعم أن النبي قام بحرق ذلك المسجد وتدميره ، والله تعالى يعلم أن ذلك التزييف سيقال بعد النبي ، لذا قال تعالى عن ذلك المسجد « لا يزال بنيانهم الذى بنوا ريبة فى قلوبهم : التوبة ١١٠ » أى لا يزل قائما ولم يتعرض للهدم والتدمير كما زعم رواة الاحاديث .. أى أنه نفس التشريع ، الاعراض عن المنافقين مهما قالوا ومهما فعلوا طالما كان الفعل لا يدخل ضمن حمل السلاح وسفك الدماء .. أو كان لا يدخل فى حقوق البشر .. وعلى سبيل المثال فان كبير المنافقين عبد الله بن أبى كان الذى تولى الحملة الدعائية الكاذبة فى حديث الافك ، وقال تعالى عنه «والذى تولى كبره منهم له عذاب عظيم : النور ١١» ، ومات ذلك الزعيم المنافق على فراشه ، لم يتعرض لحد الردة المزعوم ، ولم يعقد له النبي محكمة تفتيش مع أن القرآن نزل يحكم بكفره ، ولم يحكم النبي بالتفريق بينه وبين زوجاته ، وكانت له عدة زوجات.

إن النبي الذى أرسله رب العزة جل وعلا رحمة للعالمين كان رفيقا بأولئك المنافقين الذين كانوا يؤذونه ويكيدون له ، وكان يستغفر لهم ويلبى بعض مطالبهم أملا فى استمالتهم ، وجاءه العتاب من ربه حين استغفر لهم فقال له تعالى « استغفر لهم أو لا تستغفر لهم إن تستغفر لهم سبعين مرة فلن يغفر الله لهم : التوبة ٨٠ » . وحين اذن لبعضهم فى التخلف عن غزوة ذات العسرة قال له تعالى « عفا الله عنك لم اذنبت لهم حتى يتبين لك الذين صدقوا وتعلم الكاذبين : التوبة ٣ » .

لقد تركز التشريع القرآنى فى الاعراض عن المنافقين دون تعرض لهم

بالإيذاء أو الاستتابة أو الاستمالة ، وحين تخلفوا عن الاشتراك فى غزوة ذات العسرة وفضح الله مكائدهم ، أنبأ رب العزة بأن المنافقين القاعدين فى المدينة سيقابلون جيش المؤمنون فى عودته يحلفون لهم بالإيمان الكاذبة بأعذار وهيمة حتى يعرض المؤمنون عنهم ، حسبما تعودوا ، وأمر الله تعالى المؤمنين بالأعراض عنهم اكتفاء بما سيحدث لهم فى جهنم ، يقول تعالى « سيحلفون بالله لكم إذا انقلبتم إليهم لتعرضوا عنهم فأعرضوا عنهم إنهم رجس وأوآهم جهنم جزاء بما كانوا يكسبون : التوبة ٩٥ » .

وهكذا عاش المنافقون فى دولة النبى فى حرية كاملة آمنين من الملاحقة والعقاب ، مع ان الديمقراطية المعاصرة تضع تصرفاتهم فى قائمة قوانين العقوبات ، ولكن تشريع القرآن جاء بحرية لم تعرفها العصور الوسطى ولم تعرفها العصور الراهنة ، ولذلك قام فقهاء العصر العباسى بصياغة تشريعات تتفق مع واقع العصور الوسطى ، والحركة السلفية الراهنة تخاصم عصرنا الراهن ، عصر الديمقراطية وحقوق الإنسان ، وتريد الرجوع بنا إلى تشريعات العصر العباسى فى القرون الوسطى ، وتخاصم الفكر الإسلامى المستنير الذى يريد التعرف على التشريع القرآنى الذى جعله الله تعالى حجة على البشر إلى قيام الساعة .

الاستتابة

ولا يتورع فقهاء السلفية عن طلب الاستتابة ممن يخالفهم فى الفكر ، وإلا اعتبروه مرتدا ، فهل الاستتابة من تشريعات القرآن؟ وبمعنى آخر ، هل يجوز لبشر أن يستتيب واحدا أو مجموعة من البشر؟ .

أن كلمة « تاب » ومشتقاتها جاءت فى القرآن الكريم ٨٧ مرة ، وليس منها على الإطلاق كلمة « استتاب » أو « استتابة » لان التوبة علاقة خاصة بين العبد وربّه جل وعلا ، وليس لبشر حتى النبى أن يكون واسطة بين الله تعالى وعبيده فى موضوع التوبة ، ومن يجعل نفسه واسطة بين الله تعالى



والناس يطلب منهم التوبة على يديه باسم الله فقد أساء فهم الاسلام ، ولا نقول أكثر من هذا ، وكل ما نطلبه منه أن يعطينا ما يثبت أن الله تعالى أعطاه تفويضاً بأن يتلقى التوبة من العباد ، أو أن يطلب منهم - باسمه - التوبة ، أو الاستتابة ، وتفصيلات القرآن فيها الكفاية ، ومنها ننقل بإيجاز الآتى:

١- فى أمور العقيدة وخفايا القلوب حيث لا يعلم السرائر إلا الله تعالى ، «فالتوبة لا تكون إلا لله وحده ، والله تعالى أمر النبى الكريم أن يعلن ذلك» قل هو ربىلا إله إلا هو عليه توكلت وإليه متاب : الرعد ٣٠ ، أى إليه وحده أتوب وعليه وحده أتوكل وبه وحده أومن ، جل وعلا ، هذا ما يقوله النبى وما ينبغى أن يقوله كل مؤمن ، المتاب أو التوبة يتوجه بها لله وحده.

٢- لان النبى والبشر لا يعلمون السرائر ، ولان الله تعالى وحده هو الذى يعلم خائنة الاعين وما تخفى الصدور كانت التوبة على العباد صفة إلهية لله وحده ، يقول تعالى « فمن تاب من بعد ظلمه وأصلح فإن الله يقوب عليه : المائدة ٣٩ » ومن الذى يستطيع أن يعرف حقيقة تلك التوبة وذلك الصلاح إلا الله علام الغيوب ؟ ويقول تعالى للمؤمنين فى تشريع الضياع « علم الله انكم كنتم تخفون انفسكم فتاب عليكم : البقرة ١٨٧ » ، فمن الذى يعلم تلك الأمور الخاصة السرية غير الله ؟.

٣- ولان التوبة على العباد شأن خاص بالله تعالى فإن من صفاته أو اسمائه الحسنى « التواب » وقد تكرر وصفه بالتواب احدى عشر مرة .. لان التوبة على العباد شأن خاص بالله تعالى لا يشاركه فيه أحد من خلقه ، مروهنة بمشيئته تعالى ، يقول تعالى « ويتوب الله على من يشاء : التوبة ١٥ » ، ويقول « ليجزى الله الصادقين بصدقهم ويعذب المنافقين إن شاء أو يتوب عليهم : الاحزاب ٢٤ » ، وليس لبشر أن يتدخل فى مشيئة الرحمن ليتوب على شخص أو يعذب آخر.

٤- ان البشر جميعا امام التواب الرحيم سواسية فى طلب التوبة ، كل منهم يطلبها من الله سواء كان نبيا أو حتى من المنافقين أو من العصاة أو من الصالحين ، يقول تعالى عن ابراهيم واسماعيل عليهما السلام وهما يرفعان قواعد البيت الحرام ويدعوان الله تعالى قائلين « وتب علينا إنك أنت التواب الرحيم : البقرة ١٢٨ » ، ويقول تعالى عن خاتم النبيين وأصحابه من المهاجرين والانصار حين اشتد عليهم الأمر فى غزوة ذات العسرة « لقد تاب الله على النبی والمهاجرين والانصار الذين اتبعوه فى ساعة من بعد ما كاد يزيغ قلوب فريق منهم ثم تاب عليهم انه بهم رؤوف رحيم: التوبة ١١٧ » ، قاله تعالى هو الذى يتوب على الانبياء والمؤمنين لانه وحده الذى يعرف ما يدور فى قلوب البشر .

والله تعالى يفتح باب التوبة للعصاة قبل الموت « انما التوبة على الله للذين يعملون السوء بجهالة ثم يتوبون من قريب فأولئك يتوب الله عليهم وكان الله عليما حكيما : النساء ١٧ » ، قاله تعالى العليم الحكيم هو الذى يقدر مدى الصدق والايمان لدى كل تائب ومدى عزمه على التوبة وتصميمه عليها والظروف الخاصة بكل تائب .

إذن فالاستجابة- أو طلب التوبة- حق لله وحده ولم يعط رب العزة هذا الحق لنبي من الانبياء ، فكيف نعطي انفسنا حقا من حقوق الله تعالى الالهية ؟ .

ارجاء الحكم لله يوم القيامة

إن تشريع القرآن لا يعطى لأى بشر صلاحية فى الحكم على العقائد وما فيها من اختلافات ، ولكن يرجئ الحكم عليها إالى الله تعالى . يوم القيامة ، وقد شاء الله تعالى أن يخلق البشر مختلفين فى الآراء والمذاهب والمعتقدات إلا من اعتصم بالكتاب واسلم نفسه له دون هوى ، يقول تعالى فى تقرير سنته فى الخلق واختلافهم « ولو شاء ربك لجعل الناس أمة واحدة

ولا يزالون مختلفين إلا من رحم ربك ولذلك خلقهم : هود ١١٨، ١١٩. »

وتاريخ البشر الدينى سلسلة لا تنقطع من الاختلافات بين « الأديان » وفى داخل كل « دين » وفى داخل كل طائفة ، وفى داخل كل مذهب ، ولقد اختلف اليهود والنصارى وادعت كل منهما انها على الحق وأن الاخرى على الباطل ، وقال تعالى يؤجل الحكم عليهم إلى يوم القيامة « فالله يحكم بينهم يوم القيامة فيما كانوا فيه يختلفون : البقرة ١١٣. »

وفى داخل اليهود كانت ولا تزال خلافات كثيرة بعد نزول التوراة ، فقال تعالى « ان ربك يقضى بينهم يوم القيامة فيما كانوا فيه يختلفون : يونس ٩٢ » وقال عن اختلافهم فى السبت « وان ربك ليحكم بينهم يوم القيامة فيما كانوا فيه يختلفون : النحل ١٢٤. »

واختلف النصارى بين أهل الحق وأهل الباطل ، وقال تعالى فى تأجيل الحكم بينهم إلى يوم القيامة « ثم إلى مرجعكم فاحكم بينهم فيما كنتم فيه تختلفون : آل عمران ٥٥. »

وعن الاختلاف بين من يعبد الله وحده ومن يتخذ وليا مع الله قال تعالى أن الله يحكم بينهم فى ما هم فيه يختلفون « الزمر ٤٦ » وعن العلاقة بين المسلمين وأهل الكتاب قال تعالى « فاستبقوا الخيرات إلى الله مرجعكم جميعا فينبئكم بما كنتم فيه تختلفون : المائدة ٤٨. »

وعن علاقة النبى بمن يحاربه قال تعالى « انك ميت وانهم ميتون ثم انكم يوم القيامة عند ربكم تختصمون : الزمر ٢٠ ، ٣١. » أو يقول لهم فى حوارهم معهم « قل بجمع بيننا ربنا ثم يفتح بيننا بالحق وهو الفتاح العليم : سبأ ٢٦. » وقال الله تعالى للنبى فيمن يجادله بالباطل وان جادلوك فقل الله اعلم بما تعملون ، والله يحكم بينكم يوم القيامة فيما كنتم فيه تختلفون : الحج ٦٨ ، ٦٩. »

والبشر ليسوا فقط المسلمين وأهل الكتاب ، بل كل أولاد آدم ، وقد تأجلت

خلافاتهم الدينية إلى يوم القيامة ، يقول تعالى عن كل نفس بشرية « ولا تكسب كل نفس إلا عليها ولا تزر وازرة وزر أخرى، ثم إلى ربكم مرجعكم فينبئكم بما كنتم فيه تختلفون : الانعام ١٦٤ ،وعن الحكم بين البشر جميعا يوم القيامة يقول تعالى يأمر النبي باعلان هذه الحقيقة «قل اللهم فاطر السموات والأرض عالم الغيب والشهادة ، أنت تحكم بين عبادك فى ما كانوا فيه يختلفون : الزمر ٤٦ ».

ونكتفى بهذا القدر من آيات القرآن التى تؤكد أن الخلافات الدينية بين البشر مرجعها إلى الله تعالى وحده يوم القيامة ، وهذا ما يسرى على الانبياء أنفسهم . فهل يجوز بعد هذا لمسلم محب لدينه أن يدعى لنفسه خصوصية من خصوصيات رب العزة؟.

ان أمور العقيدة مرجعها إلى الله تعالى يوم القيامة ، ولكن هناك حقوقا للبشر فى الدماء والأموال والأعراض ، ومن يقترب جناية على غيره فالمعقوبات تنتظره من المجتمع فى الدنيا قبل الآخرة ، وذلك تشريع الله سبحانه وتعالى فى ضبط حركة المجتمع ، وهنا يكون مجال القضاء البشرى فى حماية حقوق الافراد مع الالتزام بتشريع القرآن وسريانه على الأمير والاجر دون تهريف أو تزيف ،وعلى سبيل المثال فقد توسعوا فى عقوبة القتل- وهى فى القصاص- فقط وجعلوها تشمل الزنا فى حالة الاحصان ، وتشمل ترك الصلاة والخروج عن الجماعة ،ونسوا حرص الاسلام على حقن الدماء.

التفريق بين الزوجين

يزعم الزاعمون بان من تشريعات الاسلام التفريق بين المرتد وزوجه ، وقد سبق أن المناهقين الذين حكم الله تعالى بكفرهم، لم يحكم بالتفريق بينهم وبين أزواجهم ومفهوم «التفريق بين المرء وزوجه» جاء بهذا النص فى القرآن الكريم فى موضعين:

الأول: فى قوله تعالى فى تشريع الطلاق «فامسكوهن بمعروف أو فارقهن بمعروف: الطلاق ٢»، وقوله تعالى «وان يترفقا يغن الله كلا من سعته: النساء»، والواضح هنا أن قرار التفريق راجع للزوج أو للزوجين معا، وليس من طرف خارجى لا شأن له بالموضوع.

الثانى: فى قوله تعالى عن أعوان الشياطين أصحاب الأعمال السحرية المزعومة «فيتعلمون منهما ما يفرقون به بين المرء وزوجه: البقرة ١٠٢»، هنا، يأتى التفريق بين الزوجين من عامل خارجى، أو تدخل شيطانى يزين لأحد الزوجين أو كليهما كراهية الآخر والله تعالى يتوعد صاحب هذا العمل بسوء وبأنه لا خلاق له وأنه بشئ الثمن الذى باع به نفسه للشيطان.

إلى هذا الحد يبلغ حرص القرآن على سلامة الحياة الزوجية وأن تكون بمنجاة من التدخل الخارجى الذى يهددها، بل إن القرآن جعل من واجب المجتمع أن يتدخل لاصلاح ما بين الزوجين إذا احتدم الشقاق حتى يوفق الله بينهما «النساء ٣٥»، فالتدخل الخارجى يكون للاصلاح فقط وليس لتخريب البيوت.

والزواج أقدم شريعة إلهية، إذ هو البديل الشرعى للزنا والبغاء المحرم، والله تعالى أخبر بان أكثرية البشر يخلط لديها الأيمان بالمشرك «وما يؤمن أكثرهم بالله إلا وهم مشركون: يوسف ١٠٦» وما أكثر الناس ولو حرصت بمؤمنين: يوسف ١٠٣»، فهل يكون زواج أكثرية البشر باطلا؟ ولكن الاعتقاد القلبي شئ وتشريع الزواج شئ آخر، فالشرك يتزوج زواجا شرعيا صحيحا بغض النظر عن عقيدته، واجداد النبى عليه السلام عاشوا قبل الإسلام وفى وسط مجتمع مشرك، ومع ذلك فإن النبى عليه السلام جاء من نكاح شرعى عبر الآباء والاجداد، والله تعالى اعلم حيث يجعل رسالته وقبل أن تأتية الرسالة تزوج محمد بن عبد الله زواجا شرعيا من السيدة خديجة، وكذلك فعل أصحابه، ولم يحدث بعد الإسلام أن نزل تشريع يعتبر

الزيجات السابقة فاسدة لأنها تمت غى مجتمع مشرك ، ولكن الذى حدث ان القرآن اعتبر كل الزيجات السابقة للاحياء والاموات زيجات شرعية واقتصر العرب بحفظ انسابهم عن طريق ذلك الزواج الذى كان قبل الاسلام ، واستمر الصحابة بنفس الزواج ويحمل اولادهم نفس الانساب بل ان تشريعات القرآن فى الزواج جاءت بتعديلات كلها فى صالح المرأة ، ولكن لم يتعرض لكيفية عقد الزواج ، لان الكيفية كانت ولا تزال شرعية.

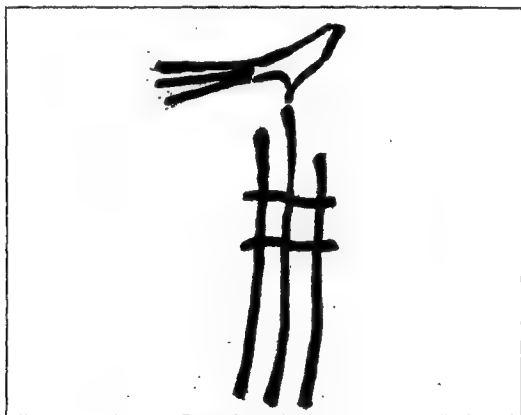
بل هناك أكثر من ذلك ، فقد جاءت التعديلات التشريعية فى القرآن بتحديد المحرمات فى الزواج من الام والبنت والاخت وخلافه ، وبعض هذه التعديلات كانت تمس حالات ممدودة كانت موجودة عند نزول ذلك التشريع فى المدينة ، وأعنى بذلك ما كانت الجاهلية تبيحه من زواج الابن ممن تزوجها ابوه من قبل ، ومن جمع الزوج بين الاختين فى الزواج . نزل القرآن يحرم ذلك ويقول « ولا تنكحوا ما نكح اباؤكم من النساء إلا ما قد سلف انه كان فاحشة ومقتا وساء سبيلا » ، وقال فى تحريم الجمع بين الاختين فى الزواج « وان تجمعوا بين الاختين إلا ما قد سلف : النساء ٢٢ ، ٢٣ » .

لقد اعتبر القرآن زواج الابن من مطلقة أو أرملة ابيه فاحشة ومقتا وساء سبيلا ، وذلك صيغة مشددة فى التحريم ، كما حرم أيضا الجمع بين الاختين فى الزواج ، ومع ذلك فقد استثنى من التحريم تلك الحالات الفردية التى سلفت وكانت موجودة حين نزل التشريع القرآنى ، وأصبح التحريم متعلقا بأى حالة تأتى بعد نزول ذلك التشريع ، والمعنى أن القرآن لم يحكم بالتفريق فى تلك الحالات الفردية الممدودة ، وكان يمكن التضحية بها فى سبيل قاثون إلهى مستمر إلى قيام الساعة ، ولكن إلى هذا الحد بلغ حرم القرآن على استمرار الاسرة حتى لو كانت تخالف تشريع القرآن ، فنزل التشريع السارى ولكن مع استثناء بالابقاء على تلك الاسر القليلة العدد . وهكذا لا نجد على الإطلاق فى تشريع الاسلام تفريقا بين زوجين فى المجتمع

المسلم المسالم الآمن.

وهناك حالة استثنائية بالغة الخصوصية تعرض لها المسلمون والمشركون بعد الهجرة ، فقد هاجر رجال للمدينة ورفضت زوجاتهم الهجرة تمسكا بالدين والوطن ، وهاجرت نساء للمدينة وتركن أزواجهن تمسكا منهن بالاسلام واصبحت المدينة ومكة فى حالة حرب ، وتم الانفصال التام بين أولئك الرجال والنساء ، وكان لابد أن ينزل تشريع يتحول به الانفصال الفعلى إلى فراق شرعى حتى تتزوج المشركة فى بلدها من مشرك فى مكة ، وحتى تتزوج المسلمات والمسلمون المهاجرون فى المدينة . ونزل حكم الله بأن يدفع الرجال متهور النساء للازواج السابقين ، يفعل ذلك المؤمنون والمشركون ، ويبدأ زواج جديد بعد اتمام الفراق الواقعى ، وذلك ما جاء فى سورة المتحنة التى نزلت بتحريم الموالاة بين المسلمين والمشركين المعتدلين ، مع الامر بالبر والقسط مع المشركين الذين لم يعتدوا على المسلمين والمشركين المعتدين ، مع الامر بالبر والقسط مع المشركين الذين لم يعتدوا على المسلمين ولولا حالة العداء والحرب بين مجتمعى مكة والمدينة ما احتاج المسلمون والمشركون إلى نزول هذا التشريع ، فهو تشريع لبناء الاسر وليس للتفريق بين الازواج ، لان التفريق كان واقعا مؤلما وكان يستلزم حلا ، وجاء الحل . وتذكر كتب السيرة ان ابنين لابی لهب كانا على وشك الزواج بينتین للنبی ، ثم تركاهما بتأثير أبی لهب وأم جميل ، وتذكر السيرة أيضا أن زينب بنت النبی تزوجت من مشرك بلغ من اخلاصه لعقيدته انه اشترك مع المشركين فى موقعه بدر ، ثم اسره المسلمون ، وبعثت زوجته بنت النبی بعقد لتفتدي به زوجها من ابيها إلى المدينة ، أى أنها بقيت مع زوجها فى مكة ولم تتركه لتهاجر مع ابيها إلى المدينة ، مع اسلامها ، ثم تركت زوجها فيما بعد ، وهاجرت ثم لحق بها زوجها مؤمنا ، والمستفاد من ذلك أن الزواج شريعة الله بغض النظر عن العقائد ، وانه ليس فى تشريع الاسلام التفريق بين الزوجين بسبب العقيدة إلا إذا اختار ذلك وافترقا عن بعضهما بمحض ارادتهما ، والله المستعان .

الديوان الصغير
**الحسبة بين الدولة
المدنية والدولة الدينية**



**مركز المساعدة القانونية
لحقوق الإنسان**

تم إعداد الدراسة التالية قبل أن يذاع مشروع القانون المنظم لدعوى الحسبة. وبمراجعة النص الكامل لهذا المشروع ومذكرته الإيضاحية كما نشر في جريدة الجمهورية بعددها الصادر في ١٩٩٦/١/٢٧، نجد أن تلك المذكرة - بعد أن تستعرض فكرة الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر وفكرة الإخلال بحقوق الله تعالى أو بالحقوق التي يغلب فيها حق الله تعالى - تنص على أنه : « لكل مسلم استعداد القاضى مبلغا إياه بوقوع إخلال بحق الله تعالى ، أو بتلك الحقوق التي يكون حقه غالباً فيها، والشهادة عنده بوقوع هذه المخالفة ، لإثخاذ ما يلزم لتقويمها عند ثبوتها ».

لا يجد المركز ثمة ما استجد بحيث يدفعه لإعادة النظر في هذا التقرير لأن ما تضمنه المشروع ومذكرته الإيضاحية ، إنما يؤكد بجلاء واضح صحة الاستنتاج الذي يخلص إليه التقرير من أن دعوى الحسبة إنما في حقيقتها تعكس رؤية طائفية وتقييم تمييزي على أسس دينية ضد المواطنين غير المسلمين ، كما تقيم من الناحية الأخرى تمييزاً قائماً على أساس الجنس ضد المرأة سواء كانت مسلمة أو غير مسلمة.

كما تتعارض مع حقيقة أن مجتمعنا المعاصر قائم على أسس قومية، ولم يعد يتخذ من الديانة أساساً له. فالحسبة كمفهوم، وكنظام ، وكدعوى لم تعد تتسق مع حق المواطنة المعاصرة، أي لم تعد تتسق مع الدولة المدنية، وإنما تتسق كامل الاتساق مع الدولة الدينية، وبشكل خاص مع الدولة الدينية التي لا تعرف تعدد الأديان كمجتمعنا المصري المعاصر.

١- تعريف الحسبة وتطور نطاقها:

عرف الإسلام نظام الحسبة، بوصفها وظيفة دينية من باب الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، وقد اقتصر عمل المحتسب على ما يتعلق بالفش والتدليس، وهو ما يتعكس على معناها الشرعي، فأصل الحسبة الشرعية مشاركة السوق (شارف الشئ : قاربه ودنا منه) والنظر في مكاييله وموازينه، ومنع الفش والتدليس في المعاش وغيرها في المكاييل والموازين وله حمل الماطلين على الإنصاف وأمثال ذلك مما ليس فيه سماع بيعة ولا إنفاذ حكم وكأنها أحكام ينزه القاضى عنها لعمومها وسهولة أغراضها. فتدفع إلى صاحب هذه الوظيفة ليقوم بها فوضعها على ذلك أن تكون خادمة لمنصب القضاء.

تطور نطاق الحسبة ليصبح أمراً بمعروف ظهر تركه ، ونهياً عن منكر ظهر فعله ، وإصلاحاً بين الناس (الموسوعة الذهبية للعلوم الإسلامية- القاهرة- دار الفد- ص ٦٠٤ حتى ٦٠٥). كانت الحسبة تدخل في ولاية القاضى في كثير

من العصور ، ولكن لما صار نظر السلطان عاما في السياسة ، اندرجت في الوظائف التابعة له ، و أفردت بالولاية . وقد أدى إنسلاخ ولاية الحسبة عن القضاء واعتبار سلطة المحتسب مستمدة من سلطة الخليفة ، إلى مساوئ كثيرة ، من أهمها تنازع الاختصاص بين الولايات ، وافتتات المحتسبين ، ورجال الشرطة ، على اختصاصات القضاء ، كما أدى إلى قيام السلاطين بتسخير المحتسبين لتحقيق مآربهم الخاصة ، لدرجة قيامهم بمنع المصريين من كثرة الكلام ، لما اشتهروا به من السخرية بالماليك وسلاطينهم (دعوى الحسبة- د. حسن الليدي- مركز الطباعة والنسخ- أسبوط -١٩٨٣-ص١٦٨ و١٦٩).

٢- تعريف المحتسب:

هو الذى يقوم بوظيفة الحسبة وهو من أرباب الوظائف الدينية ، وقد ثبت أن الرسول هو أول من استعمل المحتسب فى نظامه ، حيث تولى ذلك الأمر بنفسه فكان يتفقد الأسواق ويأمر وينهى ، كما ثبت أنه استعمل من أصحابه من يقوم بهذا الأمر حيث استعمل سعيد بن العاص على سوق « مكة المكرمة » واستعمل عمر بن الخطاب على « سوق المدينة المنورة » (الموسوعة ٦١٦ و٦١٧) إلا أن لفظ المحتسب لم يستعمل إلا فى عهد الخليفة المهدي العباسي (١٥٨-١٦٩هـ) . (الموسوعة-ص٦٠٥).

٣- نوعا ولاية الحسبة:

تنقسم الحسبة من ناحية أسباب ولايتها إلى ولاية أصلية (المتطوع) وولاية تبعية (المحتسب).

أ- الولاية الأصلية (المتطوع):

وهى التى تستمد أساسها من تكليف الشارع بها لكل من تتوافر فيه الأهلية اللازمة للقيام بها ، وذلك فى الحالات التى يكون فيها المكلف أولى الناس بإنفاذ الحكم إليه فى القيام بالحسبة والأمر بالمعروف والنهى عن المنكر ، على من ولاهم عليه عليه كزوجته وأولاده ، أو المرءوسين له فى العمل فهو يحكم ولايته عليهم يعد من أولى الناس بإنفاذ القيام بها إليه (عن الحسبة ودور الفرد فيها- د. عبد الله مبروك النجار- كتاب مجلة الأزهر- شهر رضى الحجة ١٤١٥هـ-ص٥٣).

ب- الولاية التبعية (المحتسب):

وهى الولاية المستمدة من قرار التعيين الصادر من الخليفة أو الأمير ،

وتتضمن هذه الولاية كما تتضمن الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر على وجه الطلب مباشرة ، وتتضمن كذلك القيام بما يؤدي إلى اجتناب المنكر ، لا على وجه الطلب ، بل على وجه الادعاء والاستعداد ، وذلك بالتقدم إلى القاضي بالدعوى ، وبالشهادة لديه ، أو باستعداد المحتسب (النجار - ص ٥٤).

ج- الفرق بين سلطات المتطوع والمحتسب:

١- فرض الحسبة متعين على المحتسب بحكم الولاية ، وفرضه على المتطوع من فروض الكفاية.

٢- قيام المحتسب بالحسبة واجب لا يجوز أن يتشاغل بغيره ، وقيام المتطوع بالحسبة من نوافل الأعمال يجوز تشاغله عنه لغيره.

٣- المحتسب منصوب للاستعداد إليه فيما يجب إنكاره وإبلاغه بالمخالفات التي تقع من المنحرفين ، والمتطوع ليس منصوباً للاستعداد.

٤- من واجبات وظيفة المحتسب أن يجيب طلب من استعدي به وأبلغه بالجريمة أو المخالفة ، وذلك ليس على المتطوع.

٥- على المحتسب أن يبحث عن المنكرات الظاهرة ، ليصل إلى إنكارها ، ويفحص عما ترك من المعروف الظاهر ، ليأمر بإقامته ، وليس على غيره من المتطوعة بحث ولا فحص.

٦- للمحتسب أن يتخذ على الإنكار أعواناً ، لأنه منصوب لهذا العمل . وليس للمتطوع أن يندب لذلك أعواناً.

٧- للمحتسب أن يعزز على المنكرات الظاهرة ، ولا يتجاوزها إلى الحدود وليس للمتطوع أن يعزز على منكر.

٨- للمحتسب أن يرتزق من بيت المال فيأخذ أجره من الدولة ، وليس للمتطوع أن يأخذ أجراً على عمله.

٩- للمحتسب أن يجتهد فيما تعلق بالمعروف دون الشرع ، فينكر ما أذاه إليه اجتهداه ، وليس للمتطوع ذلك. (النجار - ص ٥٥ و ٥٩).

د- شروط المحتسب:

لقد أوصلها بعض الفقهاء إلى سبعة شروط يجب أن تتوافر في المحتسب ، وسنقصر كلامنا هنا على شرط إسلام المحتسب وشرط الذكورة

* إسلام المحتسب:

يجب أن يكون المحتسب مسلماً ، ذلك أن الحسبة عمل يتضمن تنفيذ أحكام إسلامية تتصل بالعقيدة الدينية ، أو تستمد أحكامها من مصادر التشريع

الإسلامى فى الكتاب والسنة والإجماع (النجار-ص ٥٨) . وبالنسبة لدعوى الحسبة تحديدًا يكيف الفقهاء هذا الشرط على النحو التالي: لما كانت دعوى الحسبة نوعًا من الشهادة فإنه يشترط فيمن يدعى حسبة الشروط التى تطلب فى الشهادة . ومن شروط جواز قبول الشهادة فى الشريعة الإسلامية أن يكون الشاهد مسلمًا لأن فى الشهادة ولاية، ولا ولاية لكافر على مسلم (نظرية المصلحة فى الدعوى- د. عبد المنعم الشرقاوى -القاهرة - ط أولى ١٩٤٧ ص ٣٧٩).

* شرط الذكورة:

ذهب طائفة من أهل العلم إلى اشتراط الذكورة ،فيمن يتولى الحسبة ، وقالوا أن المرأة لا يتأتى منها أن تبرز إلى المجالس ، ولا أن تخالط الرجال أو تفاوضهم مفاوضة النظير للنظير ،وعند أبى حنيفة تلى الحكم فيما تجوز لها فيه الشهادة (النجار ص ٦٧) ويشترط فى بعض الأمور كالحدود أن يكون الشاهد ذكرًا (الشرقاوى ص ٢٨٠) ،وقد ذهب البعض إلى إجازة أن يكون مدعى الحسبة امرأة بدون أى قيود (الليلى ص ١٦٨).

٤- دار الحسبة:

أول من أنشأها عمر رضى الله عنه ،حيث ولى عبد الله بن عقبة على النظر فى الأسواق والتفتيش على المكاييل والموازين ومنع الغش فيما يباع ويشترى (الموسوعة ص ٦٠٥) . وفى العهد العثمانى استبدل باسم دار الحسبة اسم البلدية وباسم المحتسب رئيس البلدية (الموسوعة ص ٦٢٤).

٥- دعوى الحسبة:

تكون فى حقوق الله تعالى أو فيما غلب فيه حق الله وهى الحقوق التى يجب على كل مسلم المحافظة عليها ، وعرفها البعض بأنها استعداد من له ولاية القضاء بوجود مخالفة لحق من حقوق الله تعالى أو لحق غلب فيه حق الله تعالى، والشهادة عنده بوقوع هذه المخالفة سواء بطريق الرفع ، أو بطريق الدفع ، لاتخاذ ما يلزم بالنسبة لها (الليلى ص ٦٠).

٦- حقوق الله فى لغة القانون المعاصر:

الكثير من الباحثين الإسلاميين ،عند تناوله لنظام الحسبة يجعل حقوق الله مرادفة لفكرة النظام العام والآداب العامة المعمول بها فى نطاق القانون الوضعى المعاصر ،فالليلى مثلاً يذهب إلى أن القانون المعاصر قد عبر عن فكرة حقوق الله ،بأنها تلك الحقوق التى ترتبط بالنظام العام والآداب العامة

فى المجتمع بحيث اعتبر القانون المعاصر بعض هذه الحقوق لصيقة بشخصية الإنسان لا يجوز له التنازل عنها ، وربط بعضها الآخر بفكرة النظام العام والآداب العامة ، فلا يجوز للفرد الاتفاق على ما يخالف مقتضيات النظام العام ، حتى لو كان فى ذلك تضحية بمصلحته الخاصة ، وتشكل فكرة النظام العام والآداب ، قدرا من القواعد ، تمثل الحد الأدنى من القواعد اللازمة لحماية المجتمع من الانحلال (الليبيدي -ص ٥٤).

وهنا نجد مفارقة ففكرة النظام العام العلمانية نجدها تتحول إلى فكرة حقوق الله ، وهى فكرة دينية عقائدية فالأولى تخاطب جميع المواطنين بغض النظر عن موقفهم من المعتقدات الدينية والثانية تخاطب أتباع دين محدد ولا تخاطب جميع المواطنين . وهذا الإحلال لا يستقيم مع حقائق العصر إلا إذا نزعنا الرءاء الدينى لفكرة حقوق الله ، أو جردنا غير المسلمين من حق المواطنة ، أو على الأقل اعتبرناهم يتمتعون بحق مواطنة منتهى. كما ينتقص من حق المرأة المسلمة مقارنة بالمواطن المسلم. وبعبارة أخرى : قبول مبدأ تأسيس الدولة على أسس دينية . إن تصور القائلين بضرورة تعميم دعاوى الحسبة فى كل فروع القانون المصرى إنما ينطوى على رفض تأسيس الدولة المدنية الحديثة والمطالبة بتأسيس الدولة الدينية.

٧- توسع القضاء الإدارى فى شرط المصلحة لا علاقة له بدعاوى الحسبة:

من المبادئ المستقرة فى فقه القانون : أنه حيث لا مصلحة فلا دعوى ، وهو ما نص عليه صراحة فى المادة الثالثة من قانون المرافعات وفى الفقرة الأولى من المادة ١٢ من قانون مجلس الدولة. وإن كان هذا لا يمنع من اختلاف نطاق ومدلول مفهوم المصلحة بين فقه القانون الخاص وفقه القانون العام ، بل من الممكن أن يختلف هذا النطاق من مجال قانونى إلى آخر فى داخل ذات الفقه. ففى قانون المرافعات نجد أن المصلحة التى تبرر قبول الدعوى يجب أن تستند حق اعتدى عليه أو مهدد بالاعتداء عليه. وهى ذات القاعدة التى تسرى على دعوى التعويض أمام القضاء الإدارى (دعوى القضاء الكامل) حيث يشترط فى رافعها أن يكون صاحب حق أصابته جهة الإدارة بقرارها الخاطئ بضرر يراد رتقه وتعويضه عنه ، فى الحالتين ربط بين المصلحة والحقوق الشخصية.. أما فى دعوى الإلغاء أمام القضاء الإدارى فنجد فصلا تاما بين المصلحة والحق وترتبط المصلحة هنا بالمركز القانونى ، بحيث لا يشترط فى المصلحة التى تبرر قبول الدعوى أن تستند إلى حق لرافعها اعتدت عليه

السلطات العامة، أو مهدد بالاعتداء عليه بل يكفي أن يكون ذا مصلحة شخصية ومباشرة في طلب الإلغاء والمصلحة الشخصية هنا معناها أن يكون رافع الدعوى في مركز قانوني خاص أو حالة قانونية خاصة بالنسبة إلى القرار المطعون فيه من شأنها أن تجعله - ما دام قائما - مؤثرا في مصلحة ذاتية للطالب تأثيرا مباشرا.

وقد توسع القضاء الإداري في تطبيقه لشرط المصلحة في دعاوى الإلغاء فاكتمل في حالات بقبول الدعوى تأسيسا على مجرد توافر صفة المواطنة. لرافعها، فيكفي هذا ليكون له مصلحة شخصية مباشرة في الطعن على القرار محل البحث. قضت محكمة القضاء الإداري بتاريخ ١٩٨٠/٤/٨ في الدعوى رقم ٦٩٢٧ بأنه: « من المقرر أن صفة المواطن تكفي في بعض الحالات لإقامة دعوى الإلغاء طعنا في القرارات الإدارية التي تمس مجموع المواطنين المقيمين في أرض الدولة وتعرض مصالحهم أو صحتهم أو مستقبلهم للأخطار الجسيمة » وكانت الدعوى تتعلق بدفن النفايات الذرية في الصحراء المصرية (الليبيدي- هامش ص ٢٨).

وهذا التوسع في مفهوم المصلحة الشخصية لا يجعل دعوى لإلغاء دعوى حسبة، لأن دعوى الإلغاء مازالت تستلزم المصلحة الشخصية المباشرة، هذا من ناحية ومن ناحية أخرى فديانة المدعى لا دخل لها في تحديد قبول الدعوى أو عدم قبولها طالما أن هذه الديانة لا دخل لها في تحديد مركزه القانوني، وهو الأمر الذي يأخذ وزنا مختلفا في دعاوى الحسبة، فرافعها يجب أن يكون مسلم الديانة، وإذا رفعها غير المسلم تعين عدم قبولها طالما لم يقدم المتمسكون بتطبيق دعاوى الحسبة في التشريع المصري الوضعي الراهن اجتهادا جديدا ينزع عن دعاوى الحسبة غلافها الطائفي الديني لتصبح متفقة مع حقائق مجتمعنا المعاصر.

إن كل من فحصنا مساهمتهم في دعاوى الحسبة من المحدثين المنتسبين للفكر الإسلامي، وجدناهم يدللون على أن القضاء الإداري المصري قبل دعاوى الحسبة مستشهدين بأحكام في دعاوى الإلغاء متجاهلين مناقشة الضابط بين التوسع في مفهوم المصلحة وبين دعاوى الحسبة. انظر في ذلك: النجار من ص ١٩٦ وما بعدها، والليبيدي ص ٥٧ وما بعدها، ود. سليم العوا - جريدة الشعب، وفهمي هويدى - جريدة الاهرام.

ولذلك سنعرض بالتفصيل لحكم المحكمة الإدارية العليا ليوضح خطأ هذه

الاستشهادات

دراسة حالة:

فى ١٢ / ٣ / ٧٨ أقام الأستاذ عبد الحليم رمضان الدعوى رقم ٩٥٩ لسنة ٣٢ ق يطلب فيها الحكم بإلغاء القرار الصادر من رئيس الجمهورية بمنح أحد المستشارين نائب رئيس مجلس الدولة وسام الاستحقاق من الطبقة الأولى على سند من أنه ما زال يتبوأ مقعد القضاء وتعرض عليه فى ساحته عشرات القضايا ضد مانح الوسام وبرر توافر الصفة لديه بالقول أنه من أحاد المحامين ومن أحاد المواطنين والمتقاضين.

ودفعت هيئة قضايا الحكومة: « بعدم قبول الدعوى لانتفاء المصلحة والصفة تأسيسا على أن أحكام القضاء الإدارى قد اضطردت على أنه يلزم لقبول دعوى الإلغاء أن يكون للمدعى فيها مصلحة شخصية مباشرة . وذلك بأن يكون المدعى فى مركز قانونى خاص بالنسبة للقرار المطعون فيه من شأنه أن يجعل هذا القرار مؤثرا فيه تأثيرا مباشرا . وقد نصت الفقرة (أ) من المادة (١٢ من قانون مجلس الدولة) على أن لا تقبل الطلبات الآتية:

(أ) الطلبات المقدمة من أشخاص ليس لهم فيها مصلحة شخصية ، وببين من ذلك عدم توافر المصلحة أو الصفة فى رافع الدعوى لأن القرار المطعون فيه لا يمس أى حق من حقوقه أو مركزا قانونيا له: (مر ١٢٨ من نص الحكم فى الطعن رقم ٦٩١ لسنة ٢٧ ق والصادر من المحكمة الإدارية العليا فى جلستها المنعقدة فى ٢٦ نوفمبر سنة ١٩٨٣- والمنشور فى مجموعة المبادئ القانونية التى قررتها المحكمة الإدارية العليا - السنة ٢٩- العدد الأول- إصدار المكتب الفنى لمجلس الدولة - الناشر الهيئة المصرية العامة للكتاب - القاهرة - ١٩٨٨- من ص ١٢٥ : ١٢٣ - ومبين قرين كل مقتطف رقم الصفحة الموجود بها من المجلد المذكور). وبجلسة ٩ يناير ١٩٨١ حكمت المحكمة بعدم قبول الدعوى . وأقامت قضاءها على أساس أن المدعى تنتفى مصلحته فى الطعن على القرار المشار إليه ، فهو لا يؤثر فى مصلحة شخصية له تأثيرا مباشرا حتى يقبل منه طلب إلغائه ، وذهبت المحكمة إلى صحة القول بأن تشريعات السلطة القضائية ومجلس الدولة هى من فروع القانون العام المنظمة لولاية الحاكم وولاية القضاء والقضاة إلا أن ذلك لا يخول لأى مواطن الحق فى الطعن على القرار الصادر بالخالف لأحكامها ، ذلك أن القوانين التى يترتب على مخالفتها بطلان القرارات الإدارية هى بحسب الأصل من تشريعات القانون

العام ، ومع ذلك لا يقبل الطعن على القرارات الادارية إلا إذا مست مصلحة شخصية مباشرة لطالب الإلغاء ، ولا يقبل الطلب من أى شخص لمجرد أنه مواطن يهيمه إنفاذ القانون المتعلق بالنظام العام وحماية الصالح العام وإلا أصبحت دعوى الإلغاء من قبيل دعاوى الحسبة (ص ١٢٨-١٢٩).

وفى ٤ أبريل ١٩٨١ طعن المدعى على هذا الحكم بالطعن رقم ٦٩١ لسنة ٢٧ ق وأسس طعنه عما يتعلق بقضاء محكمة أول درجة بعدم قبول الدعوى لانتفاء الصفة على ركيزتين هما:

الأولى: تستند على الحسبة، وذهب الطاعن إلى «أن الحسبة فى شريعة الإسلام التى جعلها الدستور المصرى المصدر الرئيسى للتشريع ، لم تشرع دعواها إلا لحماية النظام الاجتماعى والأخلاقى ، أى لحماية النظام العام والآداب العامة بالتعبير القانونى المعاصر. وأردف الطاعن أن أحكام التنظيم القضائى لمجلس الدولة والسلطة القضائية تعتبر من فروع النظام العام، فإذا نصت المادة ١٢٢ من قانون مجلس الدولة الصادر بالقانون رقم ٤٧ لسنة ١٩٧٢ - وتقابلها المادة ٦٨ من قانون السلطة القضائية -على تحريم معاملة عضو مجلس الدولة بأية معاملة استثنائية ، فإن هذا النص وهو يتعلق بالنظام العام ، يحرم الحكم على خلافه - ويفقد للطاعن الصفة والمصلحة فى الطعن على القرار المطعون فيه (ص ١٢٩).

والركيزة الثانية تستند على توافر المصلحة الشخصية المباشرة للطاعن بوصفها مناط الصفة حيث ذهب إلى أنه «بصفته محاميا يتعامل مع دائرة منازعات الأفراد والهيئات بمجلس الدولة- التى يرأسها السيد المستشار - فى عديد من قضاياها المقامة على رئيس الجمهورية مانح الوسام المذكور . ومن ثم فإن للطاعن مصلحة فى نقاء قاضيه وتجرده وحيدته » (ص ١٢٩).

وبجلسة ٢٦ نوفمبر ١٩٨٣ حكمت المحكمة الادارية العليا « بقبول الطعن شكلا وفى موضوعه بإلغاء الحكم المطعون فيه وبقبول الدعوى شكلا وبرفضها موضوعا وألزم المدعى بالمصروفات » (ص ١٣٣).

ورفضت تأسيس حكمها بقبول الدعوى لتوافر الصفة على الحسبة وأسست هذا القضاء على توافر المصلحة الشخصية المباشرة لرافع الدعوى ، أى رفضت الركيزة الأولى التى استند إليها الطاعن فى طعنه ، وقالت المحكمة تقعيذا لهذا الحكم ما نصه: « ومن حيث أنه ولئن كانت المادة ١٢ من قانون مجلس الدولة الصادر بالقانون رقم ٤٧ لسنة ١٩٧٢ تنص على أن « لا

تقبل الطلبات الآتية

(أ) الطلبات المتقدمة من أشخاص ليست لهم فيها مصلحة شخصية.

(ب) ...»

وقد أطررت أحكام المحكمة الإدارية العليا على أنه يجب أن تكون تلك المصلحة شخصية ومباشرة - إلا أنه في مجال دعاوى الإلغاء وحيث تتصل هذه الدعوى بقواعد واعتبارات المشروعية والنظام العام فإن القضاء الإداري - يوازره الفقه - لا يقف في تفسير شرط المصلحة الشخصية عند ضرورة وجود حق يكون القرار الإداري المطلوب إلغاؤه قد أهدره أو مسه - كما هو الحال بالنسبة لدعاوى التعويض وسائر الدعاوى الحقوقية - وإنما يتجاوز ذلك بالقدر الذي يتفق ويسهم في تحقيق مبادئ المشروعية وإرساء مقتضيات النظام العام ، بحيث يتسع شرط المصلحة الشخصية لكل دعوى إلغاء يكون رافعها في حالة قانونية خاصة بالنسبة إلى القرار المطعون فيه من شأنها أن تجعل هذا القرار مؤثرا في مصلحة جديدة له . و جدير بالذكر أن اتساع نطاق شرط المصلحة الشخصية في دعوى الإلغاء على النحو السابق لا يعنى الخطأ بينها وبين دعوى الحسبة ، فلا يزال قبول دعوى الإلغاء منوها بتوافر شرط المصلحة الشخصية لرفعها .

ومن حيث أنه بتطبيق ما تقدم على الدعوى الماثلة ، يبين أن المدعى يبرر مصلحته في إقامة دعواه بأنه بصفته محاميا له عديد من القضايا التي أقامها أمام محكمة القضاء الإداري ، وتَنظرها دائرة (منازعات الأفراد والهيئات) التي كان يرأسها السيد المستشار في تاريخ منحه الوسام المنوه عنه ، ويختصم فيها رئيس الجمهورية - بصفته - فإن له مصلحة في الطعن على قرار منح الوسام ضمنا لنقاء قاضيه وتجرده وحيدته .

ومن حيث أنه في حدود ما تقدم تبدو للمدعى مصلحة شخصية في أن يقيم دعواه الماثلة ، مستهدفا منع ما قد يكون من شأنه التأثير على حيده القاضي أو تجرده أو استقلاله ، وليطمئن وسائر المتقاضين إلى سير العدالة على النهج الذي أمر الله به واستقرت عليه كافة النظم والشرائع ، لتستقيم موازين القسط في يد العدالة » (ص ١٢٩ - ١٣٠) .

٨- السند التشريعي لدعاوى الحسبة:

تضمنت لائحة المحاكم الشرعية والصادرة بالمرسوم بقانون رقم ٧٨ لسنة ١٩٢١ ، وهي اللائحة المنظمة لسير العادة في المحاكم الشرعية المعروفة

حينذاك والتي تتولى الفصل في منازعات الأحوال الشخصية ، السند التشريعي لدعوى الحسبة في المادتين ٨٩ و ١١٠ من الفصل الثالث المعنون «فى سماع الدعوى» من الباب الثانى المخصص لقواعد المرافعات من الكتاب الرابع المعنون فى الاعلانات وقيد الدعوى وتقديم المستندات والمرافعات والأدلة والأحكام وطرق الطعن فيها:

فالمادة ٨٩ نصت على : « لا تسمع الدعوى إلا على خصم شرعى حقيقى »
فى حين جرى نص المادة ١١٠ على أنه: « إذا حضر المدعى أو وكيله فى الميعاد المعين وسمعت الدعوى والجواب عنها ودفعها المدعى عليه بدفع يعتبر دعوى مستقلة ، ثم تخلف المدعى بعد ذلك ولم يرسل ، وكيلًا عنه فى الميعاد المعين فلمدعى عليه الخيار إما أن يطلب اعتبار القضية كأن لم تكن وإما أن يطلب السير فى دعوى الدفع بالطريق الشرعى ويعتبر المدعى عليه مدعىا والمدعى مدعىا عليه.

وهذا إذا لم يكن الدفع من حقوق الله تعالى أما إذا كان من حقوق الله تعالى فيجب على المحكمة أن تسير فيه بالطريق الشرعى ».

٩- إلغاء السند التشريعى لدعوى الحسبة والاختلاف فى تفسير مدى هذا الإلغاء:

أتى القانون ٤٦٢ لسنة ١٩٥٥ ليلغى العديد من مواد لائحة ترتيب المحاكم الشرعية ومن ضمنها المادتين ٨٩ و ١١٠ اللتين تمثلان السند التشريعى لدعوى الحسبة ، وبذلك أضحت اللائحة خلوا من أى سند تشريعى لدعوى الحسبة . وخضعت بذلك منازعات الأحوال الشخصية لقواعد قانون المرافعات فيما يتعلق بشروط قبول الدعوى ، طالما لم تعد هناك قواعد خاصة فيما تبقى من اللائحة أو القوانين المكملة لها تنظم هذا الموضوع ، وذلك تطبيقا لأحكام المادة الخامسة من القانون ٤٩٢ لسنة ٥٥ والتي نصت على:

« تتبع أحكام قانون المرافعات فى الاجراءات المتعلقة بمسائل الأحوال الشخصية والوقف التى كانت من اختصاص المحاكم الشرعية أو المجالس المالية عدا الأحوال التى وردت بشأنها قواعد خاصة فى لائحة ترتيب المحاكم الشرعية أو القوانين الأخرى المكملة لها ».

واختلف الفقه والقضاء فى تحديد أثر هذا الإلغاء حيث ذهب جانب من الفقه وسابريته فى هذا محكمة النقض إلى استمرار العمل بدعوى الحسبة فى نطاق منازعات الأحوال الشخصية ، باعتبارها المجال الخاضع تماما

لشريعة الإسلامية، كما يجد سنده في المادة ٢٨٠ من اللائحة التي تميل القاضى إلى الرجوع من المذهب الحنفى فى حالة خلو اللائحة والقوانين المكملة لها من نص يحكم الموضوع المشار، فطالما خلت اللائحة والقوانين المكملة لها من أى نص يلغى دعاوى الحسبة، وطالما أن دعاوى الحسبة من الأمور التى تعد راجحة فى المذهب الحنفى فيتعين قبول دعاوى الحسبة تطبيقاً لأحكام المادة ٢٨٠ من اللائحة.

وذهب رأى آخر إلى أن المشرع بذلك الإلغاء قد أفصح عن إرادته بخضوع منازعات الأحوال الشخصية لذات القواعد الواردة فى قانون المرافعات والتى تخضع لها باقى المنازعات المدنية، وذلك بهدف توحيد القضاء الذى يخضع له كافة المواطنين.

ويستند هذا الرأى إلى أن المادة الأولى من القانون المذكور قد نصت على «تلقى المحاكم الشرعية والمحاكم المالية ابتداء من أول يناير سنة ١٩٥٦ وتحال الدعاوى المنظورة أمامها لغاية ٣١ ديسمبر سنة ١٩٥٥ إلى المحاكم الوطنية لاستمرار النظر فيها وفقاً لأحكام قانون المرافعات».

ويستفاد من هذا النص ليس فقط إلغاء المحاكم الطائفية وإنما أيضاً إخضاع دعاوى الأحوال الشخصية لأحكام قانون المرافعات، وحدد النص معياراً تاريخياً لبدء تطبيق أحكام هذه المادة على الدعاوى المنظورة والتى ينطبق عليها هذا المعيار، أى حدد النص النطاق الزمنى لسريان أحكامه. وبذلك تخضع جميع دعاوى الأحوال الشخصية الجديدة المرفوعة من ١/١ ١٩٥٦ لأحكام قانون المرافعات.

١- المادة ٢٨٠ من لائحة ترتيب المحاكم الشرعية لا تصلح سنداً تشريعياً

لدعاوى الحسبة:

نصت هذه المادة على:

«تصدر الأحكام طبقاً للمدون فى هذه اللائحة ولأرجح الأقوال من مذهب أبى حنيفة ما عدا الأحوال التى ينص فيها قانون المحاكم الشرعية على قواعد خاصة فيجب فيها أن تصدر الأحكام طبقاً لتلك القواعد».

وهذه المادة لا تصلح سنداً تشريعياً لدعاوى الحسبة وذلك للأسباب الآتية:

أ- لم يكن هذا هو قصد المشرع من هذه المادة ودليلنا على ذلك أنه قد أفرد المادة ٨٩ والمادة ١١٠ لآداء هذا الدور.

ب- موضوع المادة ٢٨٠ حيث لم تأت فى الباب الثانى المخصص لقواعد

المرافعات- وهو الموضع الطبيعي والمنطقي الذى ينظم الصفة والمصلحة فى رفع الدعوى- وإنما جاءت فى الباب الرابع من الكتاب الرابع المخصص للأحكام.

ت- هذه المادة معيبة حيث تحيل القاضى إلى قواعد غير مقننة ومدونة. فقد استقرت غالبية النظم القانونية الحديثة على ضرورة تدوين القواعد القانونية حتى يسهل للقاضى الرجوع إليها كما يسهل مهمة الدفاع ويحيط المواطن علما بالتزاماته القانونية، ويسهل للمحكمة العليا مراقبة حسن تطبيق القانون.

ث- شبهة عدم دستورية هذه المادة لتعارضها مع مبدأ الفصل بين السلطتين التشريعية والقضائية، حيث أحال النص للقاضى مهمة البحث عن الراجع من المذهب الحنفى، فإذا كانت القاعدة التى استقاها القاضى واضحة الرجحان فلا تثريب على عمله وتنتفى بذلك شبهة عدم الدستورية المؤسسة على هذا الوجه.

أما إذا كان رجحان القاعدة أمرا مبهما فإن ترجيح القاضى فى هذه الحالة إنما يكون عملا متجاوزا لنطاق البحث عن القاعدة ليدخل فى نطاق تشريعها وهو ما يخرج بالضرورة عن اختصاص السلطة القضائية ليدخل حصرا فى اختصاص السلطة التشريعية. وبصدد هذا الوجه من عدم الدستورية يقول المستشار محمود عقبة:

«إن القاضى عندما يحكم بأرجح الأقوال فإنه غير معروف ما هى أرجح الأقوال فى مذهب أبى حنيفة؟ هم يقولون أن الأرجح فى هذا المذهب هو ما اتفق عليه صاحبان أبى يوسف قاضى القضاة فى عهد الخليفة الرشيد وهو وضع كتاب الأموال فقط عن فقه أبى حنيفة. أما صاحب الثانى محمد فقد جمع كافة ما يتعلق بالمذهب الحنفى، وبالتالي فإنه غير معروف ما هو الراجع فى هذا المذهب (أخبار الأدب- العدد ٣٦- فى ١٤/١/٩٥- ص ١٠).

وهناك وجه آخر لعدم الدستورية حيث قصرت هذه المادة التشريعية الإسلامية على مذهب واحد وهو قصر غير مبرر، وهذا القصر يرجع تاريخيا لفترة الاحتلال العثمانى لمصر حيث كان المذهب الحنفى هو المذهب الرسمى للدولة العثمانية.

ج- عدم دستوريته استنادا إلى عدم نشر القواعد الراجعة من هذا المذهب فى الجريدة الرسمية، فالمادة ١٨٨ من الدستور تستلزم نشر القوانين

في الجريدة الرسمية خلال أسبوعين من يوم إصدارها. فالنشر هنا يعد ركنا جوهريا تخلفه يعدم القاعدة القانونية محل البحث . وبذلك تفتقد القواعد الراجعة من المذهب الحنفي خاصية القواعد القانونية.

١٢- المادة الثانية من الدستور لا تصلح بمفردها كسند تشريعي لدعوى الحسبة:

جعلت المادة الثانية من الدستور- بعد تعديلها أثناء حكم السادات- من مبادئ الشريعة الإسلامية المصدر الرئيسي للتشريع ، ومع هذا لا تصلح هذه المادة بمفردها كسند تشريعي لدعوى الحسبة، وذلك يرجع إلى أن هذه المادة غير نافذة بذاتها ، فلا يجوز للمحاكم أن تتولى تطبيقها مباشرة، وإنما الأمر في حاجة لتدخل المشرع لتقنين تلك المبادئ في قواعد قانونية . وهذا التحديد لنطاق المادة الثانية من الدستور ليس اجتهدا من قبلنا نحن إنما هو ما قرره محكمتنا الدستورية العليا ، حيث ذهبت إلى أن:

«نص المادة الثانية من الدستور غير نافذ بذاته ويتضمن في حقيقته خطابا موجها إلى المشرع لحث على إعادة النظر في التشريعات القائمة وفقا لمبادئ الشريعة الإسلامية التي يجب أن تصدر التشريعات الجديدة متوافقة معها. فالخطاب في هذا النص الدستوري موجه إلى المشرع لا إلى الكافة ولا إلى القضاء وبهذه المثابة فإن مبادئ الشريعة الإسلامية لا يكون لها قوة إلزام القواعد القانونية إلا إذا تدخل المشرع وقتنها أما قبل ذلك فإنها لا تعدوان تكون مصدراً موضوعياً للتشريع».

وأضافت المحكمة الدستورية أنه: لو أراد المشرع الدستوري جعل مبادئ الشريعة الإسلامية من بين القواعد المدرجة في الدستور على وجه التحديد أو قصد أن يجرى أعمال تلك المبادئ بواسطة المحاكم التي تتولى تطبيق التشريعات دون ما حاجة إلى أفرادها لنصوص تشريعية محددة مستوفاة للإجراءات التي عينها الدستور لما أعوزه النص على ذلك صراحة: (حكم المحكمة الدستورية العليا طعن رقم ٢٠/ ١ ق جلسة ١٩٨٥/٥/٤).

١٣- دعوى الحسبة تتعارض مع المادة ٤٠ من الدستور التي كفلت مبدأ المساواة بين المواطنين:

أرسي الدستور المصري الصادر عام ١٩٧١ في المادة ٤٠ منه مبدأ المساواة بين المواطنين أمام القانون وحظر كافة أشكال التمييز بين المواطنين بسبب الدين أو الجنس ، حيث نصت على أن:

«المواطنون لدى القانون سواء، وهم متساوون فى الحقوق والواجبات العامة، لا تمييز بينهم فى ذلك بسبب الجنس أو الأصل أو اللغة أو الدين أو العقيدة».

وحيث أن قوام فكرة دعاوى الحسبة هو منح المواطن المسلم الحق فى رفع دعاوى الحسبة وسلب المواطن غير المسلم هذا الحق فإنها بذلك تقيم تمييزا بين المواطنين قاسما على تفرقة دينية.. كما تقيم تمييزا آخر بسبب الجنس، عندما تمنح الذكر المسلم حقوقا أوسع مدى من تلك التى تمنحها للمرأة المسلمة. وبذلك تتعارض دعاوى الحسبة مع مبدأ المساواة الدستورى.

ومن المستقر قضائيا أن مبدأ المساواة لا يسرى إلا على من يشغلون مركزا قانونيا واحدا، وفى حالتنا توجد وحدة فى المركز القانونى بين المسلمين وغير المسلمين فى بعض منازعات الأحوال الشخصية، حيث تخضع منازعات غير المسلمين الشخصية للشريعة الإسلامية فى أحوال معينة، وفى ذلك تقول محكمة النقض:

«مؤدى المادتين السادسة والسابعة من القانون رقم ٤٦٢ لسنة ١٩٥٥ بإلغاء المحاكم الشرعية والملية أن ضابط الإسناد فى تحديد القانون الواجب التطبيق فى مسائل الأحوال الشخصية للمصريين هو الديانة، بحيث تطبق الشريعة الإسلامية على كل المسلمين وغير المسلمين المختلفين فى الملة أو الطائفة، وتطبق الشريعة الطائفية على غير المسلمين المتحدى الملة والطائفة، (نقض الطعن رقم ٢٩ لسنة ٤٧ ق جلسة ٢٨/٣/٧٩ س ٣٠ مع فنى مدنى- من ١٩٦٨) كما تشترك المرأة المسلمة مع المواطن المسلم فى ذات المركز القانونى فيما يتعلق بمنازعات الأحوال الشخصية.

١٤- فكرة النظام العام كما يعرفها القانون الوهمى المصرى لا تنسج لدعاوى الحسبة:

تقوم فكرة النظام العام على مذهب علمانى عام يطبق على الجماعة بأسرها، رغم اختلافهم فى معتقداتهم الدينية. وتطبيقا لذلك لا يمكن أن نعتبر تعدد الزوجات جزءا من النظام العام يخضع له المواطنون المصريون غير المسلمين، رغم كون الإسلام دين غالبية السكان والدين الرسمى للدولة، ورغم أن مبادئ الشريعة الإسلامية المصدر الرئيسى للتشريع. وهذا الفهم مستمد من أحكام محكمة النقض المصرية حيث ذهبت إلى:

«وحيث أنه وإن خلا التقنين المدنى والقانون رقم ٤٦٢ لسنة ١٩٥٥ من

تحديد المقصود بالنظام العام ، إلا أن المتفق عليه أنه يشمل القواعد التي ترمى إلى تحقيق المصلحة العامة للبلاد ، سواء من الناحية السياسية أو الاجتماعية أو الاقتصادية ، والتي تتعلق بالوضع الطبيعي المادى والمعنوى لمجتمع منظم، وتعلو فيه مصالح الأفراد ، وتقوم فكرته على أساس مذهب علمانى بحث يطبق مذهبا عاما تدين به الجماعة بأسرها ، ولا يجب ربطه البتة بأحد أحكام الشرائع الدينية ، وإن كان هذا لا ينفي قيامه أحيانا على سند مما يمت إلى العقيدة الدينية بسبب ، متى أصبحت هذه العقيدة وثيقة الصلة بالنظام القانونى والاجتماعى المستقر فى ضمير الجماعة بحيث يتأذى الشعور العام عند عدم الاعتداد به مما مفاده وجوب أن تنصرف هذه القواعد إلى المواطنين جميعا من مسلمين وغير مسلمين بصرف النظر عن ديانتهم ، فلا يمكن تبغيض فكرة النظام العام وجعل بعض قواعده مقصورة على المسيحيين وينفرد المسلمون ببعضها الآخر ، إذ لا يتصور أن يكون معيار النظام العام شخصا أو طائفا ، وإنما يتسم تقديره بالموضوعية متفقا وما تدين به الجماعة فى الأغلب الأعم من أفرادها (انظر فى ذلك الحكم فى الطعنين رقمى ١٦ ، ٢٦ لسنة ٤٨ ق والصادر فى ١٧ يناير ١٩٧٩ - أحكام نقض - س ٣ - العدد الأول - ص ٢٨٨ وما بعدها).

أى أن معيار النظام العام لا يتبنى على أسس شخصية أو طائفية ، ولا يرتبط بأحكام أحد الشرائع طالما لم تتضمن تلك الأحكام فى النظام القانونى ، فالقول بأن دعاوى الحسبة تستند سندها من فكرة النظام العام ، إنما يعنى الأخذ بمعيار يؤدى إلى تبغيض وتجزئة فكرة النظام العام حيث يقيم تفرقة على أساس دينى بين المواطنين بأن يمنع المسلمين منهم حق رفع دعاوى الحسبة ويحرم غير المسلمين من هذا الحق . كما يقيم تمايزا بين الذكور والإناث داخل أبناء الدين الواحد ، وهو الأمر الذى يهدم فكرة النظام العام من أساسها .

النتائج:

- ١- ضرورة تقنين ما يراه المشرع من أحكام الشريعة الإسلامية فى قانون ، وإلغاء الإحالة الواردة فى المادة ٢٨٠ من اللائحة للراجع من المذهب الحنفى .
- ٢- إضافة نص جديد إلى اللائحة يقضى بمرحلة بسرمان قانون المرافعات على منازعات الأحوال الشخصية وذلك فيما يتعلق بتحديد شرطى الصفة والمصلحة فى رافع الدعوى وهو ما يعنى إلغاء دعاوى الحسبة من قانون الأحوال الشخصية .



قضية صلاح محسن : الاعتراف ليس سيد الأدلة

حلمى سالم

شهدت الشهور الأخيرة طائفة من الوقائع الثقافية الفكرية ، التي تتفق جميعها على كبح حرية الرأي وقمع المبدعين ، كما تتفق جميعها في الانطلاق - قانوناً - من دعوى الحسبة ، وفي رفع راية الدين قناعاً لإخفاء الهدف الأصلي : كبت الفكر .

لن نتعرض لكل هذه الطائفة من الوقائع المؤلة ، لأن ذلك ليس غرضنا في هذا المقام . يكفي أن نشير سريعاً إلى : قضية الحسبة التي رفعها الشيخ يوسف البدرى على الشيخ عبد الصبور شاهين بسبب كتابه « أبى آدم » ، وقضية الكاتبين الكويتيين ليلى العثمان وعالية شعيب ، وقضية الشاعر الأردنى موسى حوامدة ، وقضية مارسيل خليفة فى لبنان ، وقضية مؤلف كتاب « قصة الخلق » من العرش إلى الفرش (الذى وافق عليه الأزهر منذ عامين لموافقته الشريعة ، ثم عاد مؤخراً وصادره لعدم موافقته العلم) ، وقضية الروائى السورى صبحى سلطان الذى صدر الدروز روايته ، وقضية رواية « صنعاء مدينة مفتوحة » للكاتب اليمنى محمد عبد الولى الذى رحل قبل عشرين عاماً ونشرت روايته قبل وفاته بخمس سنوات ، وقضية « وليمة لأعشاب البحر » ، وغير ذلك .

القضية التى أود التوقف عندها ، فى هذه السطور القليلة ، هى قضية صلاح الدين محسن ، الكاتب الذى احتجزته النيابة منذ أربعة شهور ، ثم

أصدرت المحكمة منذ أسابيع قليلة حكمها ضده بالحبس ستة أشهر مع وقف التنفيذ ، وكانت التهمة أنه- فى بعض كتبه -يزرى بالاديان وينكرها ويسئ إليها.

وصلاح الدين محسن- لن لم يتابع حكايته- مهندس يعمل فى توزيع البويات ، وقد أصدر أكثر من كتاب على نفقته الخاصة ، بين رواية ومسرحية وفكر منها: مسامرات السماء، وارتعاشات تنويرية . وقد يرى كثيرون - وأنا منهم- أن كتبه هزيلة القيمة الفنية والفكرية . وقد حدث أن مر محسن على « أدب ونقد » ، مند بضعة سنوات ، عارضا العديد من كتاباته ، لكن هيئة تحرير « أدب ونقد » رفضت أن تنشر شيئا من إنتاجه ، ليس بسبب فكرى ، بل بسبب شدة ركاكة ذلك الإنتاج وشدة ارتباكاه واضطرابه . لكن ذلك كله أمر مختلف عن ضرورة الدفاع عن حرية الأفكار والآراء ، مهما كان رأينا فى هذه الأفكار والآراء.

ومن هنا ، فإن لنا على قضية صلاح الدين محسن ، مجموعة من الملاحظات الملحة:

(١) ربما كانت كتابات محسن ضئيلة القيمة أو شديدة التشوش ، لكن الذى لا جدال فيه هو حقه فى حرية التعبير والرأى، وذلك انطلاقا من القاعدة التى تؤكد أن الحجب والمنع لا يعالجان انحرافاً ، وإنما يعالجان الانحراف بمقارعته الفكرية ودحضه بالحجة والبرهان.

(٢) كان من سوء حظ الكاتب أن طبيعته الشخصية دفعت- بقدر واضح من السذاجة -إلى عدم إنكار التهم التى وجهتها النيابة إليه ، ولم تكن لديه حصافة الالتفاف ولا حنكة التمويه ، مثلما يفعل أهل الخبرة حينما يقعون تحت طائلة القانون.

كما كان من سوء حظه أنه كاتب مغمور ليست له شهره نظرائه من الأدباء أو المفكرين الذين واجهوا نفس الهجمة المظلمة تحت ستار الدين والأخلاق الحميدة.

ويبدو أن هذين العاملين- عدم حصافته وعدم شهرته- كانا وراء ضعف اهتمام الحياة الثقافية المصرية والعربية بقضيته ، مقارنة بما نالت بعض القضايا الأخرى من عناية المثقفين ، وذلك أمر مؤسف، بحق، لأن المفترض أن

يكون الأصل في هذه القضايا هو المبدأ لا الشخص ، بصرف النظر عن شهرة الشخص أو انغماره ، كما أن المفترض أن يكون الدفاع عن « حق » المرء في إبداء رأيه ، هو جوهر موقف المثقفين ، وليس الدفاع عن « الرأي » نفسه ، مصيبا كان أو مخطئا . وكذلك الدفاع عن حرية المبدع ، يقطع النظر عن المستوى الفنى أو الفكرى لذلك الإبداع .

وعلى ذلك ، فلم يكن من اللائق أن يكون دعم المثقفين لصلاح محسن ضعيفا ، تحت أى دموع من ركاكة أدائه ، أو تشوش فكره ، أو سذاجته فى الإقرار بالتهم ، أو عدم ذبوع صيته كمفكر أو أديب .

(٢) من مفارقات هذه القضية ، أن تصل قلة اعتناء المثقفين بصاحبها إلى درجة أن يهاجمه بعض المثقفين والكتاب - من أهل حرية الرأي وحرية الإبداع - هجوماً مدينا ، جعل المتابع يرى أن حكم المحكمة على الكاتب (بالحبس ستة أشهر مع وقف التنفيذ) جاء أكثر تمعلا من رأى بعض المثقفين - المستنيرين - وأكثر تعاطفاً وإدراكا ورحمة .

بل إن اتحاد الكتاب المصرى (الذى هو نقابة مهنية لاسياسية ، مهمتها صيانة حقوق أعضائها ، والدفاع عن حرية رأيهم وإبداعهم) قد سلك سلوكين غريبين يتناقضان مع دوره الأصيل:

فمن ناحية ، انسحب محامى الاتحاد من متابعة قضية صلاح محسن (عضو الاتحاد فى مرحلة دقيقة من مراحل التحقيق .

ومن ناحية أخرى ، أعلن رئيس لجنة الحريات (!!) بالاتحاد عن اندهاشه لقبول محسن عضوا بالاتحاد ، وأشار إلى أنه سيحقق فى ملابسات قبوله .

وبدلاً من أن يسعى الاتحاد إلى حماية عضوه - مهما كان فكر العضو - حماية نقابية مهنية تقتضيها شرعية وجودها ، إذا به يتخلى عن عضوه ويتركه فى عراء التحقيق والقضاء ، معتمداً الشرط السياسى فى عمله ، قاصداً إلى منافقة التيارات الدينية المتطرفة وطلب ودأ المظلم .

وبدلاً من أن يتخذ رئيس لجنة الحريات بالاتحاد (لاحظ اسم اللجنة) موقفاً يتسق مع موقعه وواجب لجنته ، إذا به يساهم فى حملة أصحاب الحسبة بالتشكيك فى مشروعية انضمام الكاتب إلى الاتحاد . وهو التشكيك الذى يتجاوز الشرط القانونى إلى المعيار الفكرى والسياسى فى دخول الاتحاد .

وكلنا نعلم أن قانون الاتحاد يشترط لقبول العضوية أن يكون المتقدم كتابان مطبوعان (ولصلاح محسن- حوالى ستة كتب) . وكلنا نعلم- كذلك- أن مئات من أعضاء الاتحاد الحاليين هم من الموظفين والسعاة والمذيعين والاداريين الذين دخلوا الاتحاد- أيام ثروت أباطة- بدون أن يكون لهم كتاب واحد.

فلماذا الكيل بمكيالين، والاستئساد على محسن وحده؟.

(٤) أما السؤال الخطير، المسكوت عنه ، فى القضية برمتها، والذي لم يطرحه أحد بعد، فهو :- « وماذا فى أن يكون شخص من الأشخاص- مواطن أو مبدع أو مفكر- غير مؤمن ، أو غير ذى دين ، طالما أنه كمواطن يؤدي واجباته القانونية ويتمتع بحقوقه القانونية؟ ».

صحيح أن الدستور ينص على أن الدولة دولة إسلامية، ولكن هل هذا النص يعنى أن المسيحيين (وهم سدس الوطن) غير دستوريين؟.

وما معنى أن ينص الدستور على « حرية الرأى والتعبير الاعتقاد » إلا إذا كان ضمن هذا المعنى أن يمان اختيار شخص من الأشخاص فى أن يكون غير ذى دين؟.

هل « حرية الاعتقاد » هذه مقصورة على حرية الاعتقاد داخل الأديان السماوية الكتابية الثلاثة (الإسلام والمسيحية واليهودية) فقط، أم أنها تشمل حرية المرء فى أن يكون اعتقاده خارج هذه الأديان الثلاثة، أو خارج الأديان عامة؟.

هذا سؤال يحتاج إلى إجابة سريعة وواضحة وقاطعة. وإذا كان لقضية صلاح محسن من فضل- على ما فيها من آلام ومرارات- فهو فضل طرح هذا السؤال المسكوت عنه من زمن طويل:

ما هو المقصود ، تحديداً، بـ « حرية الاعتقاد »؟ هل ينصرف معناه إلى المسألة الدينية ، أم أنه محصور بالاعتقاد فى الجوانب الفكرية؟

إذا كان المعنى محصوراً فى الجوانب الفكرية فقط، لا الجوانب الدينية ، فمعنى ذلك أن ذلك النص الدستوري يجعل المسيحيين المصريين واليهود المصريين أشخاصاً غير دستوريين . ويغدو بذلك نصاً طائفيًا وتمييزيًا واستبداديًا ، بينما هو فى الأصل يتخياً نفى الطائفية ونفى الاستبداد والقمع.

وإذا كان القصد منصرفاً إلى شتى أنواع حرية الاعتقاد ، بما فيها الاعتقادات الدينية ، فإن محاكمة أى كاتب على معتقده الفكرية أو الدينية هى عمل غير دستورى . وكذلك يفدو حكم القضاء على صلاح محسن حكماً غير دستورى.

وعليه ، فإذا كانت مخالفة الدستور تقتضى معاقبة مرتكبها ، فإننا ندعو إلى محاسبة كل من اتهم أو حاكم أو حبس مواطناً بسبب رأيه أو اعتقاده ، بوصفهم مخالفين لنص صريح فى الدستور ، هو النص الذى يكفل حرية الرأى وحرية الاعتقاد ، ويؤثم التمييز بين الأفراد بسبب اللون أو الدين أو الجنس.

(٥) أما الحكم الذى أصدرته المحكمة -بعد بضعة شهور من التحقيقات- فهو يستحق بعض التقدير وبعض التحية:

فعلى الرغم من التناقض مع الدستور الذى ينطوى عليه مجرد تقديم أو مثول صلاح محسن- أو غيره- للمحاكمة ، كما سبق القول ، وعلى الرغم من من أن منطوق الحكم ، مهما كان مخففاً أو منعدماً للتنفيذ ، يعنى فى جوهره إدانة الكاتب ومحاسبته على آراء لا يذيعها بالعنف بين الناس بما يهدد النظام العام والسلام الاجتماعى ، نقول: على الرغم من كل ذلك ، فليس خافياً ما فى منطوق الحكم من اعتماد أدنى حدود العقوبة المنصوص عليها فى القانون . وليس خافياً ما فى منطوق الحكم من إيمان ضمنى بأن الحجب أو الحبس لا يعدم الفكر المراد دحضه ، بل إنه يروج ذلك الفكر ويحوّل صاحبه إلى شهيد مغدور أو بطل مضطهد.

ولعل هذه المعانى غير الخافية فى منطوق الحكم هى ما دفعت النيابة إلى الطعن فيه. ويبدو أن النيابة (التي أوكل لها المشرع الولاية على دعاوى الحسبة، بعد التعديل الذى دخل على قانون الحسبة عقب عاصفة نصر حامد أبو زيد ، منذ أربع سنوات) لا تستريح إلا إذا شق كل صاحب رأى مختلف عن النخمة الرسمية ، ولا ترى أن السلام الاجتماعى سيعم إلا إذا صار كل كتاب ومفكرى هذا الوطن من نزلاء أبى زعبل .

الفكر الديني، آفاق جديدة (٢) نقد العقل الإسلامي : متى .. وكيف ؟

أيمن عبد الرسول

لم يعد مستغربا على الباحث في مجال التراث والدراسات الإسلامية اسم (محمد أركون) المفكر الجزائري الأصل، المسلم المقيم في باريس ، وأستاذ الدراسات الإسلامية بجامعة السوربون ، خاصة بعد أن تم اكتشافه عربيا على يد مترجم وناقد عربي معروف هو ، هاشم صالح ، المسئول عن ترجمة وشرح أركون للقارئ العربي ، فأركون يكتب بالفرنسية ، لغة تدريسه ومعاشته ، وخطابه الفكري ينطلق من الهم الإسلامي ، مستهدفا ثلاثة أبعاد لا بد أن نتعرض لها بالتفصيل.

أما بالنسبة للقارئ العربي ، الذي يهتم بالفكر الإسلامي ، فلا يجد خطاب أركون محققا لأهدافه في تشكيل مرجعية أصولية دينية تحظى باهتمامه ، هذا فضلا عن الغلاء النسبي الذي تباع به كتب أركون في المكتبة العربية وهو ما يجعله بعيدا عن القارئ العادي لسببين ، أولا لعلمية خطابه المنتج حول الفكر الإسلامي ، وهذا سبب إيديولوجي ، والسبب الاقتصادي الذي أشرنا إليه ، يزهد فيه حتى المثقفين المعنيين بنفس الهم.

وبصفة خاصة كان أول لقاء مع الخطاب الأركوني من خلال كتابه « من فيصل التفرقة إلى فصل المقال .. أين هو الفكر الإسلامي المعاصر ؟ » (١) فكان فاتحة العلاقة العلمية بيني وبين كتابات هذا المفكر الذي ما أن تتورط في فهمه ، وحتى تشعر بمدى العجز والتقصير في متابعة معطيات العلوم الإنسانية المعاصرة ، وتطبيقاتها على

الفكر الإسلامي من جهة ، وكذا تبدأ في محاولة الإجابة على هذا السؤال المشكل: أين هو الفكر الإسلامي المعاصر ؟ وإن كنا جميعاً نسعى لتشكيل هذا الخطاب المعاصر (أقصد المشتغلين بالبحث عن منهج علمي لدراسة الإسلاميات) والتقاطع مع الخطاب الأصولي المنتج حول الإسلام والذي يبدو أنه استنفذ كل طاقاته الخلاقة.

ومن خلال المقالات القادمة سوف نتوقف وقفة نقدية وتحليلية من معطيات هذا الخطاب الذي نحسبه مغامراً في ساحة الفكر الإسلامي ، فالخطاب الأركوني ينطلق كما أشرنا من الفكر الإسلامي ويستهدف في المقام الأول خلق وعي نقدي متجاوز وعلمي للإسلام ، وأهدافه التأسيسية على ما نرى تتجلى في النقاط التالية:

أولاً: نقد الخطاب الإسلامي والخطاب الاستشراقي معاً ، وهذا النقد يتضمن نقد (مشروع التنوير العربي) بوصفه اعتمد أساساً على العقلانية الوضعية الأوروبية التي يوجه لها أركون نقداً منهجياً قاسياً من منظور المناهج العلمية المعاصرة ، وإن كان مفهومنا نقده للخطاب الإسلامي الإيديولوجي بالأساس ، فالخطاب الاستشراقي لا يقل تهافتاً عن الإسلامي بوصفه يعتمد المنهج الوصفي المحايد ، الذي لا يفوص إلى عمق المشكلات بقدر ما يهيم الاهتمام بجمع المعلومات والنقد التاريخي للنصوص وهو بذلك خطاب اسكولاستيكي (٢) لا يقل في خطره عن الفهم السائد للإسلام في الخطاب الأصولي.

ثانياً: قراءة التراث قراءة نقدية تهدف إلى إعادة موضعيته في التاريخ ، بعد أن أدت سيادة الأرثوذكسية (٣) إلى دمج التاريخ والاجتماع في (المقدس) وتحويله إلى (وحي) ، وهذه القراءة تفكيكية للكشف عن تعسدية هذا التراث الذي حاولت الأرثوذكسية مصادرتة لصالحها. هذه الأرثوذكسية تتجلى في ثلاثة تراثات حية ، ما زالت تمارس فعلها الآن في التاريخ من خلال التراث السنن والشيخي والفارجي (نسبة إلى الخوارج) لكل منهم إيديولوجيته الخاصة ومفاهيمه العقدية التي تدمجها تاريخياً بوصفها (مقدسة).

ثالثاً: بعد نقد الخطابات المعاصرة الإسلامية واستشراقية وتراثية يصل إلى تلك المحاولة الجسورة لقراءة الوحي/ القرآن قراءة تزامنية مضادة للقراءة الإسقاطية

التي استمرت قروناً طويلة في الفكر الإسلامي و المستمرة حتى الآن ..والمقصود بالقراءة التزامنية استعادة لحظات التلقى الأصلية، حيث كان العقل يمارس آليته وعمله بطريقة معينة ومحددة، دون إسقاط مفهوم العقل، أو العقلاني المتأثر بالفلسفة الاغريقية.. إنها قراءة العجيب المدهش كما كان يتلقاه العربي المعاصر لتكون النص (٤) وهذه القراءة تمثل نقيضاً للقراءة الاسقاطية من جهة، وكذا نقيضاً للقراءة التجزئية ، وذلك من حيث إنها- القراءة التزامنية -قراءة «كلية» تنظر إلى القرآن في كليته ،وتحتاج إلى إزاحة واختراق التراكمات الدلالية والسيمائية التي انتجتها القراءات التراثية وكذا القراءات المعاصرة ذات الطابع المدرسي.

وبعد، هذه هي الملامح العامة للخطاب الأركوني ،أما الآن فنحن بصدد عرض لأحد أهم دراساته والتي يقترح فيها تجاوز مفهوم الاجتهاد الكلاسيكي من أجل الانتقال منه إلى نقد العقل الإسلامي بهذا النقد الذي من شأنه أن يفزع حماة الارثوذكسية الاسلامية من جهة وكذا تجديد الفكر العربي الاسلامي لكي يصبح أكثر قدرة على ممارسة دوره النشط في مواجهة قضايا مجتمعاتنا الحالية.

ويشير هذا الكتاب «من الاجتهاد إلى نقد العقل الإسلامي» (٥) عدداً كبيراً من القضايا الهاجسة في ذهن الفكر الاسلامي المعاصر ، ليس أهمها شروط تجاوز الاجتهاد والذي احتكره الفقهاء (مؤسسو المذاهب الفقهية الكبرى) باعتباره امتيازاً للائمة المجتهدين ، بشروطه الكلاسيكية المعروفة (٦) ، أو عرض كم وكيف العقوبات التي تواجه الباحث اليوم في تجديد الفكر الإسلامي ، ولكن أهمها من وجهة نظرنا الإشارة إلى قضايا ما زالت في حاجة إلى نقاش ، أو فتح أفق آخر لمناقشة « اللامفكرية في الفكر الديني » ، مثل قضايا النسخ وأسباب النزول ومحاولة جادة للكشف عن البنى التأسيسية والأطر الاجتماعية والمعرفية لكتابة التراث من خلال البحث عن معنى أو لتفسير كلمة في آية وهي كلمة «الكلاة».

ومن خلال هذه الدراسة يشير أركون إلى أن ما ينبغي أن يحظى باهتمامنا هذا وينبغي التركيز عليه هو ذلك المزعوم المفرط والمفرور المتبجح الذي يدعيه الفقهاء بأنهم قادرون على التماس المياشع بكلام الله ، وقادرون على الفهم المطابق لمقاصده

العليا ثم توضيحها وبلورتها في القانون الديني ، ومن ثم تثبيت القانون الإلهي أو المؤله (الذي تم خلع أودية التقديس عليه مع أنه بشري) الخاص بالاحكام الشرعية التي ينبغي أن تتحكم أديا بكل تصرف أو كل تفكير يقوم به المؤمن الخاضع لامتحان الطاعة لله . الكتاب ص ١٥.

ذلك لأن بنية أصول الدين والفقه الإسلاميين تقوم على افتراض عدم وقوع المجتهد في الخطأ ، وإلا لما سمي مجتهداً ، وهكذا فالباحث المسلم عليه أن يواجه كل هذا الكم من الارث العقائدي والتأويلي إذا أراد الانخراط في مشروع زحزحة شروط الاجتهاد النظرية وحدوده من المجال اللاهوتي - القانوني الذي حصر فيه من قبل الفقهاء (فالمعلوم أن الاجتهاد مقصور على أصول الفقه بوصفه أحد مباحث الاستدلال الاستنباطي أو التبرينات الذهنية لقياس الغائب على الشاهد أو العكس) إلى مجال التساؤلات الجذرية وغير المعروفة حتى الآن من قبل التراث الإسلامي : أي إلى مجال نقد العقل الإسلامي.

هذا المشروع الذي تناوله أركون في مقالات عديدة، ليس أهمها كتابه «تاريخية الفكر العربي الإسلامي» وعنوانه بالفرنسية(نحو نقد العقل الإسلامي) وكانت ترجمته بهذا العنوان احتراماً لمشاعر القارئ المسلم الذي لم يألّف بعد هذه العناوين الصادمة لمشاعره العقائدية ولهذا- من وجهة نظر أركون -ينبغي على الفكر المسلم الحديث أن يحتاط لنفسه جيداً أو يجهز نفسه علمياً بشكل لا غبار عليه فيطلع على كل ما يخص معرفة النصوص القديمة والشروط التقنية للاجتهاد الكلاسيكي ، ينبغي عليه أن يمتلك ذلك أولاً ، فلا يعتبره تحصيل حاصل ، أو شيئاً تراثياً لا قيمة له. ذلك أن الانتقال من مرحلة الاجتهاد الكلاسيكي إلى مرحلة نقد العقل الإسلامي ، ينبغي أن يصمم ويصور على أساس أنه امتداد للاجتهاد الكلاسيكي وإنشاج له. هكذا ينبغي أن يفهم من قبل كل المسلمين ، وبالدرجة الأولى من قبل العلماء أنفسهم(٧).

والاشارة هنا مهمة إلى ضرورة هضم التراث بشكل جيد وعلمي من أجل تأسيس معرفة جديدة ، فلا بد قبل إعلان القطيعة المعرفية مع التراث ، دراسته بشكل جيد من

أجل إنتاج ثورة معرفية تقوم على وعى نقاط الضعف والقوة فى هذا التراث ، وكذا يدعوننا أركون إلى احترام القارئ المسلم، والحرص على عدم جرح الوعى الإيماني الخاص به أو معاملته بفجاجة.

هذه الاحتياطات المنهجية التى يراها أركون ويتفق معه فيها كاتب هذه السطور - ضرورية عندما نعالج فكرة نقد العقل الإسلامى ، من خلال قراءة أركون للآيتين رقم (١٢) و (١٧٦) من سورة النساء ، ثم الآيات (١٨٠) و (١٨٢) ، (٢٤٠) من سورة البقرة.

١- القراءات والرهانات:

يشير فى البداية -أركون- إلى صعوبة طرح مثل هذه القضايا فى جو ملغم بالنضال الإسلاموى (٨) واتساع مساحة المستهيل التفكير فيه فى المجتمعات الإسلامية الحالية، بحيث تولد هذه الأبحاث الحداثية الكثير من سوء التفاهم ،وهو يريد بهذه الملاحظة لفت انتباهنا إلى مسألة التأخر التى يعانى منها الفكر الإسلامى بسبب ضغط الرقابة الأيديولوجية الصارمة والمعممة على كل الفئات الاجتماعية ومستويات الثقافة فى البلدان العربية والإسلامية ،وهو لا يعنى فقط رقابة الحركات النضالية المذكورة ، ولكن يعنى كذلك رقابة (مسيرى شئون التقديس) (٩) التى تضغط بقوة أكبر على حرية البحث والتعبير ،ومن ناحية أخرى هناك الرقابة الذاتية التى نمارسها نحن كباحثين فى مجال دراستنا وخضوعها لظروف النشر وارتفاع أو انخفاض حدة الأسلمة فى المجتمع ،هذه الاكراهات القسرية تجعلنا فى حالة تقدمية-تراجعية فى مناقشة قضايا الفكر الإسلامى ، خوفاً من اخراجنا من دوائر الإسلام.

ومن خلال هذا المناخ المتردى للفكر الإسلامى ينتزع الاستشراق مكانته العلمية بوصفه الأكثر وعياً وانفتاحاً على فهم وعى قضايانا، لأنه الأكثر بعداً عن الاكراهات الرمزية والحقيقية التى تمارسها المجتمعات الإسلامية على مثقفينا.

ويعكس ذلك حالة التفاوت الفاضح بين الباحثين المسلمين والمستشرقين ،والذى يجعل الاستشراق مستمراً حتى الآن فى الافتخار بأنه وحده الذى يؤدى إلى تقدم الدراسات الإسلامية كما كان عليه الحال أيام جولك تسيهر وجوزيف شاخنت ولوى ماسينيون.

وجاءت دراسة الباحث الأمريكي دافيد س. بورز بعنوان دراسات في القرآن والحديث ، تشكل القانون الإسلامي الخاص بالإرث، جامعة برنستون الأمريكية ١٩٨٦ في وقتها لكي تقدم لأركون المناسبة المناسبة لبيان الفرق بين منهجه في دراسة التراث ومناهج المستشرقين ، فالعلم الاستشراقي يعد أن يقوم بعمله يخلف لنا حقلا من الانقراض ، أما الفكر النقدي فهو بناء ومتضامن فعليا مع كافة أنواع الصعوبات والحالات الجديدة التي ولدها وأثارها البحث العلمي.

ومن خلال قراءة الجزء الثاني من الآية الثانية عشرة من سورة النساء والتي يجد فيها أركون عدداً من المشاكل الأكثر صحة وملامحة لتوضيح ضرورة الانتقال من مرحلة الاجتهاد إلى مرحلة نقد العقل الإسلامي والآية نصها .. « وإن كان رجل يورث كلالة أو امرأة ، وله أخ أو أخت، فلكل منهما السدس فإن كانوا أكثر من ذلك ، فهم شركاء في الثلث من بعد وصية يوحى بها أو دين غير مضار ، وصية من الله والله عليم حلیم .»

والملحظة الأولى أن القراءة المعتمدة في المصحف أو (المؤونة النصية الرسمية المخلقة) تبني الفعلان (يورث ويوصى) للمجهول وعندئذ تصبح كلمة امرأة مفعولا به مباشرا ، تماما مثل كلمة كلالة ، ويرى أركون أن القراءة بالمبنى للمجهول وهي التي فرضت على القرآن من قبل الفقهاء والمفسرين ، قراءة تستعصى على الذوق العربي السليم ، بالإضافة إلى أنها صعبة جدا وملتوية، وقد احتاجت إلى الكثير من الشروحات والتفريجات القواعية واللغوية ، واضطرت الفقهاء والمفسرين إلى اللجوء لحاجات وثاويلات معقدة وملتبسة (ويحيل القارئ هنا إلى تفسير الطبري للإطلاع على شيء من ذلك) (١٠).

وليس من الضروري هنا أن نذكر كل التفسيرات المفضلة والتي يستشعرها الطبري عن كلمة (كلالة) ومكانتها النحوية في الآية ولكن بلغت النظر هذه المعطيات التي يشير إليها أركون: فالطبري يخصص مكانة ما للقراءة التي يبجلها البعض والتي اعتمدت رسميا ويفضلها العدد الأكبر من قراء أهل الاسلام بتعبير الطبري ، والواضح هنا أن الطريقة التي فرضت بها حجية الاجماع ، قائمة على فكرة الاجماع

العدي للأغلبية فقط، وكذا يشير إلى إهمال هذه الفكرة من جانبنا نحن الباحثين في الإسلام ، وتحظى هذه الانتهازية التفسيرية والاستخدام الذرائعى البرجماتى للنص عند تعيين الفقهاء للآيات الناسخة والمنسوخة بـ«تصحيح الآيات المنسوخة هنا تلك الآيات التى تتضمن أحكاماً لا تناسب مواقعهم ومصالحهم ، وأما الناسخة فهى التى تمشى فى خدمة اتجاهاتهم» (١١).

نقول ذلك بالرغم من الجهد الكبير الذى بذله العلماء فى سبيل نقد سلاسل الاسناد من أجل التحقق من صحة الأخبار المنقولة ، أما فى منهج أركون فإنه يعتبر هذا النقد وشيبيهه الاستشراقى (أى التحررى الفلولوجى التاريخى) لابد أن يتدخل فى المرحلة الأولى من البحث ، ولكن ليكون خطوة على الطريق لا كل العمل ، ثم نتجاوزها إلى ما هو أعمق بتحديد معنى كلمة الكلالة التى لم يحسمها البحث الاستشراقى أو التراثى على السواء ، ويقصد بذلك كيفية الانتقال من التفسير فى (كلام الله الحق) إلى الكلام الحق للفقيه أو العالم بأصول الدين وذلك من أجل ضمان الإيمان الحق لكل المؤمنين (١٢).

وينتقل بنا أركون إلى استعراض حرص الطبرى على تحقيق إجماع الأمة ، وهو المعتمد من قبل أمة المسلمين بعثابة التعبير الصحيح أو المقدس عن المقصد الإلهى المتضمن فى كلام الوحي ، مع انتقاد منهج الفلولوجيه (١٣) فى قصوره عن الوصول إلى نتائج ملموسة بخصوص قضية المعنى (١٤) ويتناول سبعة روايات من الأخبار السبعة والعشرين التى يوردها الطبرى من أجل التوصل إلى معنى كلمة (الكلالة) ويستخلص عدداً من النتائج أولها محاولة الطبرى المستيسلة والضارية لإبقاء كلمة (كلالة) دون معنى ، أو العجز عن تحديد معناها ، والملاحظ أن الآية (١٦٧) من سورة النساء نفسها تحمل شهادة على راهنية المشكلة والمأحها وطرحها فى زمن النبى ، وذلك ليس فقط لأن مسألة الإرث كانت تشغل بال المؤمنين ، وإنما لأنه يبدو أن مكانة الكلالة تحدث وضعاً جديداً يؤدى إلى زعزعة نظام الإرث العربى السابق ،ومن هنا نفهم سر المقاومة والمعارضة التى تمنع عمر، أى الشخصية الأساسية التى ركزت عليها الروايات من الكشف عن معناها الحقيقى (١٥).

تقول الآية (١٧٨) من سورة النساء:

«يستفتونك قل الله يفتيكم في الكلالة إن امروء هلك ليس له ولد فلن كاننا اثنتين فلهما الثلثان مما ترك وإن كانوا أخوة رجالا ونساء فللذكر مثل حظ الأنثيين يبين الله لكم أن تضلوا والله بكل شئ عليم».

هذه الآية كان النبی یکتفی بأحالة عمر إليها فی كل مرة یسأله فیها عن معنى الكلالة .وهی تشرح بالفعل طريقة الإرث لكنها لا توضح معنى الكلالة ، كل ما نفهمه منها أن المرء إذ يموت دون أن یخلف وراءه طفلا یمثل حالة من حالات الكلالة .وهو ما یبرر قراءة فعل(یورث) الوارد فی الآية (١٢) من نفس السورة بصیغه المبنى للمجهول لا المعلوم . ولكن إذا كانت الحالة المشروحة هكذا فی الآية (١٦) تكفی لتوضیح معنى الكلالة ، فلماذا یورد الطبری كل ذلك العدد الهائل من الحكایات الدالة على قلق عمر وعلى التساؤلات الملحة والراحة لمعاصريه ؟ (١٦).

أما ثانی الاستنتاجات فهی أن التفسیر التقليدي للقرآن لا یتردد فی حسم المشكلة التي یعترف بغموضها الكامل لصالح المعنى الذي تتطلبه حاجة الأمة وضغط العرف القائم على التشريع الخاص بالإرث.

والثالث أن المفسرين والقضاة قد حفروا هوة بین النظام التشريعی الذي قصده القرآن ،وبین النظام الفعلى المبلور والمطبق داخل إطار الدولة الخلیفية ثم الإسلامیة فیما بعد وحتى اليوم ،فالقرآن مثلا ألح على حرية التوصية ولكن الفقهاء ضيقوا علیها وشرطوها كما سنرى.

هذه الرهانات الخاصة بالقراءة تكشف لنا عن مدى الانتهازية التي حظی بها تفسیر النص القرآنی من قبل الإكراهات الایدیولوجية والنفعیة لمفكری الإسلام فی العصور القديمة (١٧) ویشير أيضا إلى التواصل المستحيل الذي یحاول المفكر المسلم الدعائی القيام به مع جمهوره ، من خلال إیضاح المقارقات التي لابد من استيعابها بین التراث الحكائی الشفاهی ،والتدوين من جهة ،وبین الأطر الاجتماعية للمعرفة واختلافها فی العصر الأول للإسلام عما نحن فیہ الآن(١٨)

وبهذا الصدد نلاحظ أنه لا توجد فقط استمراریة منذ القرن الهجری الأول وحتى اليوم للتشكيلة النفسية المرتبطة بالأخبار والشائعة لدى عموم المسلمين ،وإنما یوجد توسع سریع وواسع جدا لهذه التشكيلة بسبب التزايد السكاني فی البلدان الاسلامیة

وبسبب استخدام الوسائل الحديثة فى نشر الخطاب الإسلامى التقليدى (١٩).

ثم يقدم لنا قراءة الآيات رقم (١٨٠-١٨٢)، (٢٤٠) من سورة البقرة (٢٠) والتي تكمن أهميتها فى الاعتراف الصريح بحق كل مؤمن ليس فقط فى حرية التوريت لمن يشاء ، وإنما بواجب التوريت عن طريق ترك وصية بأملالكة للأبوين وللأقارب وللزوجات ، أى لكل من لهم الحق فى ورثته والذين يستطيع توريتهم بإرادته الصريحة أو حرمانهم من التوريت ، ولكن المشكلة هو أن هذه الآيات قد أبطلت أو نسخت من قبل الآيتين اللتين ذكرناهما سابقا من سورة النساء ، أو بمعنى أدق أعلن الفقهاء أنها باطلة أو منسوخة. وهذا ما يفسر لنا السبب فى الضغوط التى مورست لبناء الفعل (يؤخى) للمجهول ، هكذا نجد أنفسنا أمام إرادة صريحة ومتعمدة ، تهدف إلى حصر حرية التوريت ، باستخدام أداة الناسخ والمنسوخ (٢١) بالإضافة إلى التلاعب النصوى والمعنوى بالآية (١٢) من سورة النساء . وإذا كان من الصعب أن نحسم مسألة القراءات والتوصل إلى المعنى الحقيقى لكلمته (الكلالة) فإنه يمكننا أن نفتح من جديد إضباره الناسخ والمنسوخ وهكذا يمكننا أن نتوصل إلى الحقيقة التالية: وهى أن المصدر الأساسى للفقهاء وبالتالى القضاء -ليس هو القرآن بقدر ما هو التفسير (٢٢).

ويأخذنا أركون فيها بعد ذلك إلى مناقشة تأسيس فكرة الإجماع فى الفكر الإسلامى، وكيفية التلاعب بأسباب النزول والناسخ والمنسوخ وغيرها من أدوات فهم القرآن فى تأسيس الارثوذكسية الإسلامية.

٢- الإجماع والارثوذكسية:

لقد انتبه النقد التاريخى الحديث إلى الخاصية الحاسمة للإجماع وهى: إنه ناتج عن صيرورة اجتماعية وثقافية وعن جملة المناقشات والصراعات التى أدت إلى انتقاء بعض العناصر وحذف بعضها الآخر تحت ضغط الاكراهات الايديولوجية والضغوط السياسية والانظمة المعرفية التى لم تدرس أبدا حتى الآن بشكل دقيق (٢٣) ثم أن ممارسات التفسير الإسلامى التقليدى مليئة بالثغرات والشكوك والتناقضات والاختلال المنطقى والضعف . وهذه هى الأشياء التى يكشف عنها النقد التاريخى الحديث . ونحن إذ نقف بإزاء هذه الثغرات والنواقص نجد أنفسنا مدعويين كما قلنا

سابقا إلى الانتقال للمرحلة التالية من البحث عن طريق طرح الأسئلة التالية:

١- ما هو النظام المعرفي الذي يمكن استخلاصه من الممارسة التفسيرية الإسلامية والعلوم الملحقه كعلم أسباب النزول والناسخ والمنسوخ ،والاخبار ، والنحو ، والخطابة ، وعلم المعاني ؟ وما هي المكانة الأبيستمولوجية لهذا النظام المعرفي؟..

٢- مع موضوعة هذه العلوم على محك التطبيق ،ما هو التعديل الذي تحدثه هذه الطرق السردية (القصاص والحكايات) على الخطاب القرآني ، أو ما هي العلاقات التي يتعاطاها العقل مع العلامة الدلالية ؟ (٢٤).

٣- ما الدور الذي يقوم به الفاعلون الاجتماعيون في تشكيل الخطاب الديني والتفاعل معه ، وتراكماته الدلالية والسيمائية في صناعة حجاب حاجز عن بنية الخطاب الأساسية؟.

ثمة عوامل كثيرة تجعل مهمة تحديث الفكر الإسلامي شيئا بعيد المنال إن لم يكن مستحيلا ، ومع ذلك فسوف نقوم بهذه المحاولة العبثية عن طريق تقديم بعض المقترحات -التي يقترحها أركون بالطبع- لأجل تشكيل « تيولوجيا -إنسانية- منطقية» للوحى.

٣- عقل إلهي ، خطابات بشرية:

كل ما سبق يبين لنا بوضوح إنه ينبغي تجاوز المفهوم التقليدي للاجتهاد والممارسة العقلية المحدودة المرتبطة به، وذلك عن طريق النقد الحديث للعقل (٢٦).

فمسلمو اليوم يجدون صعوبة كبيرة في الفصل بين المكانة اللاهوتية للخطاب القرآني ، وبين الشرط التاريخي واللفوي للعقل الذي ينتج خطابات بشرية أرتكازا على العقل الإلهي (٢٧) وذلك اعتمادا على قراءة اعتيادية للتفسير كأن يقول الطبري في تفسيره قبل شرح كل كلمة «يقول الله» ثم يعطى شرحه ،فإنه لا يطرح أبدا إمكانية أن المقصد الإلهي قد يختلف مع شرحه الالهي ، وهكذا يتصدى العقل البشري المتهم حاليا -بكل إمكاناته المعرفية- بالقصور -نقول يتصدى العقل الطبري أو الزمخشري للخطاب الإلهي شارحا مقاصده!.

فالاجتهاد ، تعريفا ،هو فعل من أفعال الفكر النظري الموجه نحو المعرفة ، إنه البحث عن الأسس الإلهية والمعرفية من أجل تبرير الأحكام الشرعية .. لهذا السبب-

فيما يرى أركون -فإن تجديد الاجتهاد اليوم سوف يؤدي حتما إلى زعزعة العقائد الأكثر شعبية وألفة وإلى تصحيح العادات الأكثر رسوخا ، وإلى مراجعة العقائد الأكثر قدما.

إن الاجتهاد عمل من أعمال الحضارة وجهود من جهودها ، وقد مثل من خلال المفكرين المسلمين طيلة القرون الهجرية الثلاثة الأولى حيوية خلاقة لحقل فكري كبير ولثقافة ونظام معرفي مؤسس لنظام سياسي وإجتماعي وقانوني محدد ومعروف. ومن الطبيعي ، بل والضروري والعاجل ، أن نعود اليوم إلى كل هذه المجالات والميادين فنميرها من جديد من أجل بلورة تيولوجيا- أناسية- منطقية متصورة على أساس أنها جهد متواصل لتحرير الوضع البشري (٢٨).

هذه في النهاية هي اقتراحات أركون من أجل الانتقال من الاجتهاد إلى نقد العقل الإسلامي ، لكن السؤال الذي يظل قائما : متى يتم هذا الانتقال ، وكيف في ظل ما نعانيه من اكراهات وممارسات على مستوى عالمنا العربي المعاصر ، وهل تتحقق في النهاية هذه المشروعات الفلسفية الطموحة إلى خلق وعي إسلامي جديد منفتح وحيوي ؟ الأسئلة أكثر من اقتراحاتنا ، ولكن المهم في النهاية هو أن نتواصل لأجل إسلام أكثر عقلنة وعلمنة وجدية منهجية ، بعيدا عن كل التراكمات التي أشرنا إليها ، من خلال دراستها وتفحصها النقدي بالأساس (٢٩).

الاشارات والايضاحات

- (١) الكتاب صادر عن دار الساقى- لندن- بيروت طبعة ثانية ١٩٩٥ .
- (٢) اسكولاستيكي : بالمعنى الاصلى والحرفي تعنى المدرسي (الرأى الذي يعلم في المدارس) لكنها بالاصطلاح الشائع تعنى الروح التكرارية والدوغمائية والاجترارية لأراء السابقين وفي السياق تعنى الخطاب المتصف بالصفات السابقة .
- (٣) الارثوذكسية: تعنى في الاصطلاح الرأى المستقيم أو الصحيح ، وكل ما عداه منحرف وضال وخاطئ ومهرطق ، هذا هو المعنى الاصطلاحي الأيتمولوجي ، ولكن المعنى الشائع يعنى غير ذلك أى الرأى الدوغمائي المتصلب والمتزمت والذي فرض نفسه بالقوة بوصفه الرأى السليم.

- (٤) محمد أركون: الفكر الاسلامي : قراءة علمية : ترجمة هاشم صالح: ص٢١٢، ٢١٣

- ، وأنظر كذا: ٢٣- المركز الثقافي العربى ، ومركز الانماء القومى - بيروت ١٩٨٧.
- ٥- محمد أركون : من الاجتهاد إلى نقد العقل الإسلامى : ترجمة هاشم صالح : دار الساقي - لندن - بيروت الطبعة الثانية ١٩٩٣.
- ٦- شروط الاجتهاد الكلاسيكية التى وضعها الفقهاء تتمثل فى:
- ١- معرفة اللغة العربية. ٢- معرف الكتاب القرآن بكل تفاصيله (أسباب النزول- الناسخ والمنسوخ- الحكم والمتشابه.. إلخ) ٣- معرفة السنة النبوية وأحكامها . ٤- معرفة أصول الفقه. ٥- معرفة مواضع الاجماع ٦- ومقاصد الشريعة- ٧- الاستعداد الفطرى للاجتهاد (راجع الوجيز فى أصول الفقه : د. عبد الكريم زيدان- دار النشر والتوزيع الاسلامية) طبعة أولى ١٩٩٣ ص. ٤٠- ٤٣.
- ٧- من الاجتهاد إلى... سبق ذكره ص. ٧.
- ٨- المقصود بالاسلاموى هنا: الذى يستخدم الدين كسلاح سياسى فقط دون أى اهتمام بالابعاد اللاهوتية أو الروحية للإسلام.
- ٩- تعبير « مسيرى شئون التقديس » يرجع إلى عالم الاجتماع الألمانى ماكس فيبر . وهم المستولون فى نظره والمكلفون من وجهة السلطة الدينية بتحديد ما هو مقدس ، ويحتكرون القداسة والتقديس ويبيعون هكوك الغفران.
- ١٠- من الاجتهاد إلى... سبق ذكره ص. ٢٠.
- ١١- من المعروف علميا أن الفقهاء هم الذين حددوا الناسخ والمنسوخ وترتيب وأسباب النزول ، وهنا لانستبعد الاستخدام النفعى للقرآن لأجل خلق امتيازات فقهية أو سياسية وبالتالي فنحن بحاجة إلى مراجعة هذه العلوم من جديد وراجع الكتاب المذكور ص. ٣٩.
- ١٢- السابق نفسه (ص. ٤٢).
- ١٣- يترجم مصطلح الفلولوجيا عادة إلى اللغة لعربية بفقه اللغة لكنه يعنى فى تشكله التاريخى تحقيق النصوص القديمة أو المخطوطات على أسس علمية.
- ١٤- المعروف أن كل محاولات التفسير فى النهاية أو التأويل هى محاولة لخفض النص لتأويلات قارئة ، وراجع بحثنا (نقد سلطة النص :: بين التأويل والتأويل المعاكس) أدب ونقد- العدد ١٦٤ لسنة ١٩٩٩ -إبريل ص. ٣٧-٤٤).

(١٥) من الاجتهاد .. السابق ذكره ص٥٢.

(١٦) نفسه ص٥٢.

(١٧) راجع بحثنا المنشور بالعدد ١٦٨ أغسطس ١٩٩٩ من أدب ونقد ، والمعنون « نقد الاسلام الموضوع » والذي ناقشنا من خلال ثلاثة أمثلة على الاستخدام النقعي للنص من خلال تأويل قصة الغراتيق وزينب بنت جحش فيما يخص عصمة النبي ، وقصة فداء الله لاسحاق أو اسماعيل وتثبيت الفكر الإسلامى لفكرة فداء إسماعيل دون أى سند قرأنى وأثبتنا فيه التناول على النص القرأنى من قبل الاسلام السنئى .

(١٨) التواصل المستحيل تلك الفكرة قائمة على الهوية الفاصلة بين الخطاب العلمى من جهة والخطاب الدينى وبين الجمهور من جهة ثانية وهو ما يعنى أن الفكر المسلم يظل يكتب لطائفة محدودة جدا من المثقفين لانتاج خطاب علمى حول الاسلام وبالتالي يظل منقطعاً لعجزه عن تبسيط كل هذه العقد فى صياغات لغوية تقترب من الخطاب الدينى الشعبوى ، لأنه منتج لخطاب علمى بالأسباس وليس إيديولوجيا أو تعبويًا.

(١٩) من الاجتهاد إلى... المرجع السابق نفسه ص٦٤.

(٢٠) اثرتنا إثبات نص الآيات فى الهامش اختصارا لمساحة المتن:

١- « كتب عليكم إذا حضر أحدكم الموت أن ترك الوصية للوالدين والأقربين بالمعروف حقا على المتقين » ح: الآية (١٨٠).

٢- فمن بدله بعدما سمعه فإنما إثمه على الذين يبدلونه أن الله سميع عليم » (٢) الآية ١٨١.

٣- « فمن خاف من موص حنيفا أو إثما فأصلح بينهم فلا إثم عليه أن الله غفور رحيم: ٢- الآية (١٨٢).

٤- « والذين يتوفون منكم ويذرون أزواجا وصية لأزواجهم متاعا إلى الحول غير إخراج فإن خرجن فلا جناح عليكم فى ما فعلن فى أنفسهن من معروف والله عزيز حكيم» الآية ٢٤٠ من سورة البقرة .

(٢١) تنبغى هنا الإشارة إلى البحث المفصل الذى كتبه أستاذنا د. سيد محمود القمنى عن النسخ فى الوحي : محاولة للفهم فى كتابه الأسطورة والتراث ، الطبعة

الثانية ١٩٩٢ - دار سينما للنشر - والتي أوضح فيها الدور الايديولوجى فى وضع علوم النسخ والمنسوخ وتقسيم الفقهاء للاحكام على هذا الاساس.

(٢٢) كتاب أركون: من الاجتهاد.. إلى ص ٦٨ وما بعدها.

(٢٣) السابق نفسه ص ٧٧.

(٢٤) للمفكر الفرنسى ميشيل فوكو كتاب هام جدا إسماء (الكلمات والأشياء) درس فيه الفكر الأوروبى من خلال موقفه من العلامة اللغوية ، وفى العصور الوسطى كان الفكر يقوم على مبدأ التشابه والتطابق مع العلامة ، كانت الكلمات هى الأشياء ، الأشياء هى الكلمات وهذه هى الرؤية الإسلامية حتى الآن ، قال الفكر الإسلامى بهذا المعنى لا يزال ينتمى إلى الفضاء العقلى للعصور الوسطى لأن تصوره للعلامة أو اللغة هو ذات التصور القروسطى.

(٢٥) «تيولوجيا- أناسية- منطقية» بمعنى تكوين علم لاهوت إنسانى المنشأ والمصدر منطقى ، مقبول ، وتأسيس انثربولوجيا قرآنية تموضع الإنسان فى العالم وتحرره من أسر كل أشكال القسر والقمع.

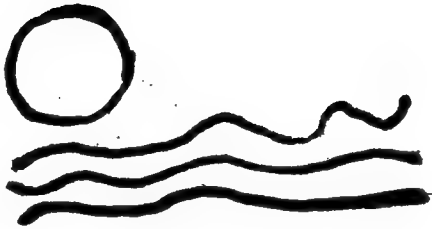
(٢٦) كتاب أركون المذكور ص ٩٢.

(٢٧) نفسه ص ٩٦.

(٢٨) نفسه ص ١٠٧ الأخيرة.

(٢٩) لنا بعض الملاحظات:

١- بعد مراجعة مختار الصحاح توصلنا إلى معنى مقترح للكلالة (ك- ل- ل الكلال العيال والثقل . قال الله تعالى : «وهو كل على موله » والكل أيضا اليتيم . والكل أيضا الذى لا ولد له ولا والد يقال منه : (كل الرجل يكل بالكسر (كلاله) . قال ابن الأعرابى : (الكلالة) بنو العم الا باعد وقيل : الكلالة مصدر من (تكلمه) النسب أى تطوفه كان أخذ طرفيه من جهة الوالد والولد فليس له منهما أحد فسمى بالمصدر . والعزب تقول : هو ابن عم (الكلالة) وابن عم (كلاله) إن لم يكن كاو كان رجلا من العشيرة) انتهى مختار الصحاح مادة (ك. ل. ل) ص ٥٧ مطبعة الجلى بالقاهرة طبعة أولى ١٩٩٤ . محمد ابن أبى بكر الرازى وفى المعجم الوجيز (مجمع اللغة العربية) (الكلالة) أن يعوت المرء وليس له والد ولا ولد يرثه ، بل يرثه ذوو قرابته (٥٢٩) وهكذا تحدد معناها



لفويا تعبيرا عن الاكراهات القديمة

٢- بمراجعة تفسير ابن كثير الجزء الأول من طبعة المكتبة القيمة ص٢٦٤ فى تفسير الآية (١٢) من سورة النساء أورد بعض الروايات حول اختلافهم على معنى الكلالة -يعنى الصحابة- إلا أنها تدور حول الشخص منقطع النسب.

أما فى تفسير نفس الآية فى (الكشاف) للزمخشري طبعة دار الريان للتراث والكتاب العربى ص٤٨٥ فوجدناه يقول بدون مباحكات جدلية أو روايات عن ضياع مسنهاها ، فإن قلت ما الكلالة ؟ قلت : ينطلق على ثلاثة على من لم يخلف ولدا ولا والدا ، وعلى من ليس بولد ولا والد من المخلفين ، وعلى القرابة من غير جهة الولد والوالد ، والمعروف أن محمود بن عمر الزمخشري توفى عام ٥٢٨ هجرى وابن كثير توفى عام ٧٧٤ هـ والغريب أن يتحدد المعنى عند الزمخشري المعتزلى بما يوافق المعانى المعاصرة ، ويفتقده الطبرى ، ويدور حوله ابن كثير... ألا ترى معنى كم المغارات المثيرة للدهشة والدراسة والتقصى؟١٩.

هذه هى بعض الملاحظات النهائية حول القضية التى يثيرها البحث موضوع المقال.

طالبان : الدين ، الوطن ، المخدرات

عرض : أسامة الرحيمي

طالبان !!

العمائم والمدافع والأفيون !

ثلاث كلمات واضحة ، معلومة المعاني ، لكنها مداخل متعاقبة لعوالم من الغموض والالتباس الذي قد يصل إلى الفوضى في بعض درجاته . لهذا فإن أسئلة لهفي تترى لاهثة لاهية :

من طالبان . هؤلاء ؟ هل هم العمائم المقصودة في العنوان السالف ، وهل تختلف عمائم هؤلاء الـ " طالبان " عن عمائم أولئك " المجاهدين " ؟ ولماذا بقيت المدافع وسيلة وحيدة للتفاهم فيما بينهم لأن ؟ ومن الذي ينفخ من روحه في جذوة الحرب التي لم تنطفئ حتى وقتنا هذا !!؟

وما حكاية الأفيون ؟ وهل ثمة علاقة تربط الدين والعمائم بالمخدرات ؟ وكيف تمتفط " دار الخلافة الإسلامية " الأفغانية بلقب " أكبر مصنع للمخدرات في العالم " ؟ وما صلة " الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر " بالحشيش والأفيون وتجارة السلاح !!؟

قد لا يتمكن أحد من الإجابة عن هذه الأسئلة الموجعة على نحو قاطع ، حتى أعضاء " طالبان " أنفسهم قد يعجزون عن تفسير ما يفعلونه وما يفعل بهم .

لكن كل هذه الالتباسات لم تجبط " عبد الحليم غزالي " الصحفي المصري الدؤوب من السعى خلف الحقيقة ، وفي محاولة بأسلة خاض غيوم الضباب

أنحاء أفغانستان - طالبان - المتفرقة ، بنية البحث عن « الوضوح » ، فقطع رحلة شاقّة بين بلدان ذلك الوطن الممزق ، مدنا وقرى ، والتقى المسؤولين ، على رأسهم " محمد عمر " .. أمير المؤمنين " .. وزعيم طالبان ، وتحدث إلى قيادات الحركة ، وقابل " يونس خالص " وهو شيخ فى الثمانين ومن رموز الأنظمة الإسلامية السابقة ومنشق على حزب حكمتيار - ١٩٨٠ - ، وظل " عبد الحليم غزالى " يسأل الناس أينما حل عن أحوالهم الاجتماعية ولم يكف عن استكشاف أوضاعهم الاقتصادية المنهارة والمتفاوتة ، وهذا كله فى النهاية وفر لنا مادة ثرية ، جاءت أشبه بالفسيفساء ، صغيرة القطع التى تصنع لوحات ضخمة مزدحمة بالتراكيب والملاحم والألوان ، ولكنها فى النهاية تشكل خريطة لأفغانستان المنكوبة ، ومن جانب يساعدنا هذا أيضا على الخروج بمفاهيم أقرب إلى الحقيقة ، وإن كانت نسبية ، لكنها تظل موجعة . موجعة جداً !!

وقبل اللف والدوران فى تلافيف الوضع الأفغانى ، لابد من التذكير - بالضرورة - بكل ماكان يتردد عن أفغانستان فى مصر وسائر البلاد العربية والإسلامية ، فى الجامعات والمساجد والمصانع والشوارع ، فالدعاية للمجاهدين الأفغان كانت " أم الأنشطة " وأول الاهتمامات ، وكانت جملة وحيدة مثل " ادفع جنيها تنقذ مسلما " كقيلة بالهاب مشاعر العامة والبسطاء ومحدوى الوعى ، وفتح جيوبهم ، وإدراة دموعهم ، وراح هؤلاء ينظرون للمجاهدين على أنهم حماة الإسلام ، وحراس العقيدة ، وأنهم يقاتلون فى سبيل الله ، وأنهم ورثة الرسول ، وأن ميتهم شهيد ، وعدوهم شيوعى ، أحمر ، كافر ، ومن يتبرع لهم يقترب من الجنة ، ولهذا تدفقت التبرعات ، نتيجة لواحدة من الحملات بالغة الدقة ، محكمة التنظيم ، وتقاطرت الأسلحة من جهات سخرية مجهولة ، وأحاطتهم موجات إعلامية مؤيدة ، مكثفة وذكية ، روجت لهم فى أنحاء العالم ، وانطلقت بطارق الإسلام تدق رؤوس السوفيت الملاحدة ، أعداء الله والبشر ، الذين احتلوا أراضى أفغانستان المسلمة ، وهاجموا الشعب المؤمن الأمن .

وسط كل هذا - أنكر جيدا - طالعتنا جريدة الاهالى - أننذ - بتحقيق صبحى من أفغانستان ، أعترف أنه كان صادما ، دفعنى إلى بعض التنصل ،

لأن ما جاء به كان مروعا ، ومغايرةً للسائد ، "فالمجاهدين .. الأبطال .. حراس العقيدة" لم يكونوا غير مجموعة قبائل متشردمة ، تتصارع على الأموال ، وتتخاطف التبرعات ، وتتنازع صفقات السلاح ، ويتقاسمون مناطق النفوذ ، ويوزعون على أنفسهم الألقاب ، ويتجرون في المخدرات بكميات خرافية ، ولا يحبون أن ينسحب السوفيت لضمان استمرار المنافع . لكن من كان يصدق كل هذا . مع أن الأيام أثبتت أن ذلك الكلام كان هو الوجه الوحيد للحقيقة.

ولم يسلم التجمع وقتها ولا جريدته ، ولأصحاب التحقيق الصادق من هجمات هستيرية ، اتهموا خلالها بالعمالة للسوفييت ، ومعاداة الإسلام ، وخاف البعض من سيف التكفير المشهر ، وأثر البعض الصمت ، إلى أن جاء " جورباتشوف " فاجأ الجميع بسحب القوات السوفيتية - ١٩٨٩ - وفر أعضاء الحكومة الشيوعية ، ودانت البلاد للمجاهدين ، وانتصر حماة الدين الذين التف حولهم المسلمون في أنحاء الأرض ، وبدا الأمر كأن عصر الفتوحات ومجد الغزوات قد عاد.

لكن الحقيقة لم تكن بعيدة ، كانت ترقد في الجوار ، فسرعان ما استدار القبليون بذات العمام ، ووجهوا فوهات ذات المدافع - التي حاربت الملاحدة - صوب القلوب العامرة بالإيمان ، وانطلقت " داناتهم " لتدك المساجد ومواطني السجود وتحرق اللهى التي استطالت ، والأهم لتفض الغموض الذى أحاطهم طويلا ، وفضحت الخلافات بين الفصائل والقبائل ، وأكدت على نحو فادح ، أنهم لم يكونوا - فى أية لحظة - سوى مرتزقة ونفعيين يسعون بدأب خلف المغاتم والأملاط ، وأن التبرعات والمخدرات وتجارة السلاح كانت فقط هى الدين والدنيا ، وكانت هى فرض العين والكفاية والجهاد فى سبيل الكسب ، والكسب فقط ، والحقيقة لم تكن غير النصب على بسطاء المسلمين الذين اقتطعوا من لقيماتهم (الحاف) ليساندوا المقاتلين فى سبيل الله ، لكنها آلة الإعلام الغربى الضخمة التى أغرقت العرب فى عداء لا يخصهم وجهاد لا يعنيههم ، ومرفوهم عن واقعهم الأليم .

ثم ظهرت عمام ثانية!!

طالبان !!

على استحياء بدأوا فى ضم الفصائل المتناحرة ، حرباً أو سلباً ،
وتدريجياً أخذوا يسيطرون على مناطق أفغانستان بلدة وراء الأخرى ،
وسرعان ماتساقطت معازل المجاهدين تحت ضربات " طالبان " ، وسيطروا
على أكثر من ٩٠٪ الآن من البلاد بأسرع من كل التوقعات ، ودانت لهم الدنيا
، ورفعت المدن والقرى رايات " طالبان " وهتف البسطاء " طالبانو زند
آباد " - تعيش طالبان بلغة الباشتو - وكتبت الأشعار وسجلت الأشرطة
ووزعت وعلت الأصوات تغنى لهم :

كيف تهجمون أيها الظالمون

على هذه النطفة الجديدة

إنهم قادمون إليكم

ودولتكم زائلة وفانية

لقد ثبتوا وسجلوا بطولاتهم فى التاريخ

أيها الطلاب لقد أرسلكم الله

هدية إلى هذه الدنيا والأمة !

لكنهم أطفاؤا كل شئ !! هؤلاء الذين أرسلهم الله !!

منعوا التعليم المدنى ، وقصروه على تعليم دينى أشبه بنظام الكتاتيب ،
ومنعوا تعليم البنات ، وألغوا التلفزيون ، وكسروا أجهزته فى البيوت ،
وحددوا البيث الإذامى بخمس ساعات فى اليوم ، وحصروا البرامج فى «
الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر» و« ضرورات الإسلام » و« صراط الفلاح »
وقد يتوقف الإرسال لانقطاع الكهرباء بسبب انهيار الشبكة وتدهور
الخدمات ، لكن صوتا هادرا يأتى عبر الأثير لايتوقف أبدا عن الصراخ " هنا
قندهار .. دار الخلافة الإسلامية " !!

زار " عبد الحليم غزالى " المطبعة الأميرية الباقية من عهد الملك ظاهر
شاه الذى حكم أفغانستان قبل الشيوعيين ، وتصدر هذه المطبعة صحيفتين
أسبوعيتين هما " الخلافة " - ٣٠٠ - نسخة ، " وطلوع أفغان " - ٢٠٠٠ - نسخة
ومجلة باللغة العربية اسمها " الطالب " وهى شهرية ، وهذه المطبوعات
تخدم أهداف طالبان وتغطى أخبارها وفتاواها ، وتشتمل المقالات على آراء
قيادات الحركة وتكشف توجهاتهم ونياتهم.

ولا تقدم المطبعة شيئا له قيمة غير الصحفتين والأوراق الحكومية والشهادات المدرسية . وعندهم مكتبة عامة وحيدة فى قندهار مكونة من غرفة واحدة متوسطة المساحة معظم الكتب الموجودة فيها للأن باللغة الروسية « كادت الأتربة تحجب عناوينها فى مشهد ينتمى إلى ماضٍ أقل » . وفى مدرسة « أمير المؤمنين » التى تضم تلاميذ من أعمار متباينة تقتصر الدراسة على المواد الدينية ، ومنعت كل المواد العصرية .

وفى لقاءات مع مختلف مسئولى سلطة طالبان تبين أن أغلبهم من غير المتخصصين مثل " محبوب الله " رئيس فرع البنك الوطنى وهو لم يدرس الاقتصاد إطلاقا ، ولم يكمل دراسته أصلا ، ويؤكد ببساطة .. " أن الاقتصاد الأفغانى دمر فى السنوات العشرين الأخيرة ، ويمر بمرحلة صعبة جدا .. وأنه ضعيف جدا " .

والعجيب أن طالبان لم تطيع نقودا حتى الآن ، والنقود المتداولة " تعود إلى العهد الشيوعى ، وعهد الرئيس المخلوع برهان الدين ربانى ، والنقود التى طبعها دوستم تستبعد من التداول " .

وهكذا فإن جميع المسئولين فى بقية المجالات يتمتعون بذات الجهل ، والأكثر نشاطا وفعالية بينهم هم أفراد جماعة " الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر " الذين قاموا بمصادرة كل الأجهزة ، المسجلات والتلفزيونات والفيديو والأشرطة والأسطوانات ، حتى الدفوف والدمى وألعاب الأطفال ، .. الخلاصة .. صادروا كل شئ ، وأظلمت حياة الناس تدريجيا ، وبدأ الليل من داخل رؤوس قادة طالبان ومن دورهم لينتشر واثقا فوق البلاد ليقطى أنحاء أفغانستان ، وكان يدا خفية تكسر المصابيح واحداً تلو الآخر .. فنرى وطناً كاملاً ينطفئ !!!

وفى " حضرة مولانا أمير المؤمنين " الملا محمد عمر " مكث " غزالى " - صاحب الكتاب ثلث الساعة فقط ، حددت له بصرامة ، زرعوا قبلها الرهبة فى نفسه ، أحرصهم على إضفاء هيبة مزعومة على " أمير المؤمنين " وإحاطته بالغموض ، مثلما هى عادة صناع الطغاة .

وصف المؤلف غرفة " الملا أمير المؤمنين " بقوله : " ضوؤها يكاد يكون غيبشاً " ويضيف .. صافحت الرجل الذى رأيت ملامحه بصعوبة ، شد على

يدى ، وقد بدأ طوله فارغاً ، ولحت من طرف خفى عينه اليمنى المفقودة .. " وتحلق حوله معاونوه ومستشاروه وذوو الحاجات ، واتخذوا الأرض موطناً لأقدامهم دون جلوس كامل ، وقد بدأ بعضهم بالانصراف ليبدأ الحوار المبرمج ، الذى قطع شك التأمل بيقين الكلام .

وخلال الحوار القصير " دافع أمير المؤمنين " الملا عمر " عن قتل الدبلوماسيين الإيرانيين بحجة أنهم غير مسجلين ، وأعرب عن استعداده لحرب بعيدة ، ورفض أية مصالحة مع المعارضة إلا إذا استسلموا لسلطة " طالبان " وقال : " تلك الفئة المجرمة والجماعة الخائنة التى باعت نفسها وبلدها للمستعمرين الأجانب لن يقبل الشعب الأفغانى ولا الإمارة الإسلامية أن تشارك فى الحكومة "

ثم أكد " أمير المؤمنين " .. أن تعليم المرأة ممنوع وقاصر على العلوم الشرعية .. وأنهى المساعدون اللقاء بسرعة وحسم ، واستكمل " عبد الحليم غزالى " الحوار مع " وكيل أحمد متوكل " الذى يوصف بأنه " واجهة طالبان ولسانها " ، ومن المفارقات التى وردت ضمن إجاباته « أن الوضع كان سيئاً والسبب تخيير الشريعة ، وعلى سبيل المثال كان اللواط منتشرأ بل إنه كان شيئاً عادياً وحتى بين قيادات من كانوا يوصفون بالجهاديين فى السابق .

وقال الرجل فى موضع آخر : " طالبان حركة وليست حزباً سياسياً " .. وبعد السيطرة الكاملة على أفغانستان سيكون هناك نظام مختلف ، ليس ديمقراطياً ولا ملكياً ، وكما قلت سيكون هناك مجلس شورى عام سيجرى اختياره بين الأفغان لكننى أشدد ، لانيريد الديمقراطية الغربية أو النظام الملكى .

وفى إجابة عن سؤال آخر قال " وكيل أحمد متوكل " لسان حال طالبان - " لقد أمرنا الناس بعدم تعاطى المخدرات ، لكن الزراعة مشكلة بالنسبة لنا ، فليس لدينا مانقده لمساعدة الزراع كبديل للمخدرات ، خاصة أنها مصدر دخلهم الوحيد ، ولذلك فالزراعة مستمرة إلى أن نجد البديل .

وفى كابول قضى " غزالى " عدة أيام تحت القصف والصواريخ التى لاتفرق ولا تعرف الرحمة .. فى الصباح ذهب لتفقد موقع الصاروخ ،

كانت الأشلاء قد جمعت في أوان بلاستيكية ، ورجال الإنقاذ يعملون بهمة بين الانقراض ، لكن الحزن والخوف كانا متواريين في العيون التي خاصمتها الدموع !!

ويضيف : " غادرننا الموقع في ليل مخيف ، لكن الخوف تبدد شيئاً فشيئاً مع الاقتراب من احتواء كابلول، تلك المدينة التي شغلت العالم ، وبقيت مشغولة بحربها وسلامها المتعاش ، وعندما تتأمل أسواقها ولغط البيع والشراء تشعر أن الصواريخ التي تتساقط ككرات السلة في الملعب هي في مدينة أخرى . إنه موت بلا خوف ، وحياة لا يستوقفها الموت !!

وفي حديث مع المهندس " منير نجيب الله شمس " سكرتير عام المفوضية العليا للحد من المخدرات ، في إمارة أفغانستان الإسلامية وفي إجابة عن سؤال عن حجم زراعة المخدرات في أفغانستان قال : " اعتماداً على إحصائية العام ١٩٩٧ التي أعدها برنامج الأمم المتحدة للحد من المخدرات فان (٥٨٤ ألف هكتار تزرع بالكوكناز (الفخشاخ) في أفغانستان ويبلغ مجموع محصولها السنوي من الأفيون - ٢٨٠٠ طن متري .

وكان أهم الأسئلة : هل طالبان متورطة في زراعة وتجارة الأفيون ؟ وأجاب عنه " الماي شيرزاد " مسئول أفغانستان في المكتب الإقليمي لغرب آسيا التابع لبرنامج الحد من المخدرات الدولي ، وكانت إجابته واضحة : " لا توجد لدينا أدلة على ذلك لكن البنك الدولي يقول إن المخدرات هي أحد مصادر دخل طالبان وحسب معلوماتنا فانهم يأخذون العشر من " زراع الفخشاخ " والعشر كما هو معروف " زكاة الزروع الشرعية " !!

" وفي إحالة للتقرير وجدنا فيه - والكلام لمؤلف الكتاب - : أن أفغانستان هي المنتج الأول للأفيون في العالم ، حيث وصل حجم الإنتاج إلى (٢٢٠٠) طن بزيادة قدرها ١٦٪ عن العام ١٩٩٧ ، وقدرت الأراضي المزروعة بالفخشاخ بـ (٦٣٧٤) هكتاراً ، أما الحقيقة الأهم في التقرير فان ٩٦٪ من إنتاج الأفيون يتم في ولايات تسيطر عليها طالبان ، بل إن ولاية بغلان التي استولت عليها طالبان في العام الحالي زاد إنتاجها من الأفيون بنسبة (١٨٤٪) ، ووفقاً لذات التقرير فان ولايتي " قندهار " و " هلماند " الجنوبيتين و " نجرهار " الشرقية توفر (٧٢٪) من أفيون أفغانستان ، وحسب التقرير

فان قيمة الأفيون الأفغانى بلغت (١.٥) ملايين دولار مما يجعله المعصول الأول من حيث دخل البلاد!!

وفى مسح للأمم المتحدة جاء " إن التجارة علنية داخل أفغانستان والأسواق مفتوحة للجميع فضلا عن تجارة موازية تتم من البيوت ، وفى منطقة " سانجيان" سوق بها(٢٠٠) محل اسمه " سوق الأفيون" والتجار الصغار يأتون بالأفيون من الزراع حيث يختار التجار الكبار الأصناف التى يريدونها للتصدير تمهيدا لبيعها للبارونات الذين يحولونها إلى هيروين فى باكستان أو طاجيكستان أو إيران لتأخذ طريقها إلى المستهلك الغربى . كما نقل صحفى غربى عن زارع خشخاش أفغانى : " الغرب يرسل لنا السلاح وطلقات الرصاص ونحن نرد بالهيريون "!!

وعن لحظاته الأخيرة فى كابول يقول " عبد الحليم غزالى " : " أحسست فى قلب آخر ليلة فى كابول بانحياز كبير فى أعماقى لهذه المدينة ، وأننى سافارق حبيبة لم أر سوى وجهها البائس وحزنها الشامخ "!!

ولم ينس رغم مرارة العنوان والموضوع - " طالبان - العمام والمذافع والأفيون" - أن يورد بعض النكات الميكية ومنها " أن جماعة من طالبان كانوا يستعدون لركوب طائرة هليكوبتر فخلعوا نعالهم ، وطارت بهم إلى مكان بعيد ، وعند هبوطهم أخذوا يبحثون عن أحذيتهم "!!

وختم بجملة جارحة.. المهم أننى رأيت فى أفغانستان من يضحكون ومن يلقون النكات ، وهذا هو الوجه الآخر الذى لا يراه كثيرون ، فالأفغان بشر ومهما بدوا قساة مع أنفسهم ، فالسمات البشرية تفصح عن نفسها دائماً .

تحية للكاتب " عبد الحليم غزالى " الذى اعتمد الحكى العفوى كمنهج مآكر ، وكأنه لا يقصد ، فنقل الوقائع حسب وقوعها دون تصنيف أو تبويب ، ليفلح فى النهاية أن يقص علينا أعجب وأوجع حكاية فوضى ناتجة عن مخططات محكمة ، قصد بها عن عمد إغراق ذلك البلد التعس والدول الإسلامية فى معارك لانهاية لها ، وأن تجوس فى مستنقع المخدرات والسلاح ، وكلما حاولت الخلاص غاصت أكثر ، لتلطح أحوال الجهل . العمام وتجللها بالعار ، وتخضب لى الظلاميين بحناء خيانة الدين والوطن!!



في حديث غير معروف:

جان جينيه:

كنت طيلة حياتي ضد

مات جان جينيه كما عاش في فندق ، شريداً مجهولاً (١٥ أبريل ١٩٨٦) ، ظل يجري بين اليونان ، تونس ، المغرب وقليلون هم الذين يعرفون مخابثه العجرية . قليل الكلام وربما إنه كان يكره الكلام ، لهذا هم قليلون أولئك الذين استطاعوا أن يسجلوا معه حواراً . وأيضاً لأن في كلامه القليل حقداً كبيراً ، مغلفاً ببعض الأدب ولكنه حقد على كل حال حقد على أولئك الذين داسوه ، أهانوه .. طلب منه ميتران وجاك لانغ أن يرسلوا رساما يرسم له لوحة : فأجابهما: أنا لى اسم عائلى واسم شخصى ، لماذا تريدون أن يكون لى تمثال أيضاً؟

* ألغت فرنسا حكم الإعدام . أريد أن أعرف مدى التأثير الذى تركه فيك أن تعلم أنه لن تقطع رؤوس فى فرنسا بعد الآن؟

* لم أكثرت لهذا بتاتا ، فقرار إلغاء الإعدام قرار سياسى . السياسة الفرنسية لا تهمنى .. ما دامت فرنسا لا تهتم بتلك السياسة التى يسمونها شمال / جنوب ، ما دامت فرنسا لا تولى مزيدا من الاهتمام بالعمال المهاجرين أو المستعمرات القديمة ، فإن السياسة الفرنسية لا تهمنى فى شئ . لا يهمنى كثيرا أن تقطع رؤوس البيض أو لا تقطع . تصفية الحسابات التى تتم بين أولئك الذين كنا نسميهم الصعاليك والقضاة لا أهمية لها بالنسبة لى .

* لا يهملك حقا أن نحاول تقليص العقاب أو إلغائه؟

* فى فرنسا ، لا ، لا يهمنى.

* فى حالة ما إذا تم الوصول إلى إنشاء مجتمع لا عقاب فيه ، ألن يجعلك هذا مرتاحا بدرجة أكبر؟.

* أن تصنع ديمقراطية فى البلاد الذى كان يسمى قديما البلاد الأم Metropole ،فهى فى النهاية ديمقراطية ضد السود أو ضد العرب ، الديمقراطية موجودة فى انجلترا منذ زمان ، بين الانجليز على الأرجح ، معرفتى بالتاريخ الانجليزى سيئة ، ولكننى أعتقد أن الديمقراطية الانجليزية ازدهرت لفترة طويلة عندما كانت الامبراطورية الاستعمارية الانجليزية مزدهرة ، إلا أنها كانت تمارس ضد سكان الهند.

* تعتقد أن ترف البلدان الغنية الاقتصادى والسياسى يؤدى ثمنه العالم الثالث؟.

* لا أرى غير هذا لحد الساعة.

* وما هو المجتمع الذى ترتاح له، يعنى الذى يثير اشمئزازك بدرجة أقل؟.

* هنا لا أستطيع أن أجيبك سياسيا ، وإنما دينيا تقريبا الشر ، كما الخير جزء من الطبيعة البشرية، ويعبر عن نفسه من خلال الرجال والمجتمعات. أنا لا أدين . لا أعرف ماذا سينتج عن الامبراطوريات الاستعمارية القديمة ، لا أعرف ما يكتون قد حملوا من خير . ولكننى أعرف ما جلبوا من شر. ربما جلبوا معهم بعض الخير أيضا . إنما كل هذا متشابه جداً لدرجة أننى لن أكون راضيا عن أى نظام سياسى كيفما كان.

* هل هذه هى الفوضوية؟.

* ليس الأمر كذلك فى الغالب. ها أنت ترى. لقد اتخذت موقفا . لم أبق غير مكتوث . عندما كنت فى ميترى (سجن) أرسلت إلى سوريا. وكان الرجل القائم على سوريا آنذاك هو الجنرال غورو، ذلك الذى لا يملك سوى يد. كان قد قصف دمشق . وبما أننى كنت أعرف قليلا من العربية ، فقد كنت أخرج من الحى العسكرى فى الرابعة وأعود وقتما شئت. والأطفال كانوا يجدون لذة كبرى وهم ينقلوننى بين الخرائب التى تركتها مدافع الجنرال غورو. فى النهاية ،كانت عندى رؤية مضاعفة عن البطل والوعد الذى كان غورو(..).

* كيف تفسر أنه بدل أن تكتب بالعامية أو تختار لغة، استعملت لغة
العد، يعنى اللغة الجميلة ، لغة السلطة ، ستكون هي النهاية كتبت لغة
الجنرال غورو؟.

* لست متأكد من أن غورو كتب لغتي ولكنك على حق، كان على أن أفتر
هؤلاء الذين تتحدث عنهم ، هؤلاء الذين تنتمي إليهم بدون شك،
الانتليجنسيا الفرنسية.

* سؤال : هناك مجازفة عندما نكتب مثلما يكتب جان جينيه . يقول
الجلادون : « إنه ليس خطيرا ، فهو يكتب بشكل جيدا جدا » الاستقطاب عن
طريق الجمال ! هل يمكن أن نقارن الطريقة التي توظفون بها لغة «الجلاد»
بالكيفية التي تمسك بها الخادما لباس السيدة (مسرحة الخادما) ، أم أن
الأمر أكثر طبيعية لديك؟ هل تخضع في قراراتك ، وأنت تعانق موسيقى
وجمال اللغة هذه لاستراتيجية ما أم لفريضة؟.

* أود أن أجيب أنها استراتيجية ، ولكن رغم كل شيء ، فقبل أن أذهب إلى
ميتري ، كنت في المدرسة وتعلمت الفرنسية على أية حال .
* هل تقرأ الأشياء التي ظهرت حديثا من طيب خاطر؟ .
* آخر كتاب حاولت قراءته كان لريموند أبيليو ولكنه بدا لي غامضا
ومكتوبا بطريقة سيئة جدا .

* قلت إن رامبو « اختار » الصمت . هل اخترته أنت أيضا؟ .
* لا أعرف السبب الذي من أجله اختار رامبو الصمت، قلت إنه فهم أن
عليه أن يصمت . أما أنا فيبدو لي أنني كتبت ما كتبت من أجل الخروج من
السجن ، ما دمت أنجزت كل كتيبي في السجن . وعندما خرجت لم يعد لوجود
الكتابة معنى . كتيبي أخرجتني من الحبس . ماذا أقول بعد ذلك؟ .
* هناك جزء منك ما يزال في السجن؟ .

لا . لا . أى جزء مني
على الأقل ذكرى أولئك الذين ماتوا هناك ، أو ما يزالون هناك لحد الآن؟ .
* لا يبقى جزء مني بدرجة أكبر في البلدان التي استنزفها الفرنسيون
كالمغرب ومالي .. وآخرين .

* لم تواتك فكرة أن تكتب من أجل أن يخرجوا هم أيضا من السجن؟ .

* لا أكرر لك أن إلغاء الإعدام لم يحرك فى شيئاً. أنا لا أقول بوضع الناس فى السجون. إنما القضية تبقى بينهم وبين القضاة، والحكومة .. إلخ ،وليس بينهم وبينى.

* كثيرون نحن الذين نأسف لهذا الصمت .

* سوف تشفون.

* لنعد إلى اختيارك للغة الكلاسيكية لماذا؟.

أشياء بتلك الخصوصية وتلك الفريدة لم أكن لأقولها سوى بلغة تفهمها الطبقة المسيطرة .كان على أولئك الذين أسميهم «جلادى» أن يسمعونى . إذن على أن أعتدى عليهم فى لغتهم .

* ما تقوله «للجلادين» لا يمكن احتماله.

* الجلادون الحقيقيون لا يقرءوننى فى الحقيقة.

* ولكنهم يهابونك . يعرفون أنك موجود.

* لا يهمهم . لا يهمهم ذلك. لا يجب أن نعطى لهذا كل هذه الأهمية . لا يجب المبالغة فى تقدير ذلك.

* هل يمكن إعطاء مثال عن اختيارك النحوى؟.

* تبدأ الجملة الأولى من أول كتاب كتبت هكذا : «فيدمان بدا لكم» وطلب منى المصحح المطبعى أن أصححها بتبديل «كم» ب«نا» قال لى : إن المقصود هو «فيدمان بدا لنا» أليس كذلك ؟ ولكننى أصبرت على الاحتفاظ ب« بدا لكم» لأننى بدأت إذ ذاك أسجل الاختلاف بينكم أنتم الذين أتكلم إليكم وبينى أنا الذى أكلمكم.

* بدأت تبعد نفسك؟.

* بدأت أبعد نفسى ، ولكن مع مراعاة القواعد، قواعدكم.

* لم تسن أبدا قواعد أنت بنفسك؟.

* أعتقد فى النهاية أننى طيلة حياتى كنت ضد، ضد القواعد البيضاء.

* ماذا تقصد بكلمة بيضاء؟.

* قواعد البيض. أريد أن أقول إننى حتى الآن . وقد بلغت ٧٢ عاما ، ليس لى حق الانتخاب ، ولو أنك تعتقد أن هذا قليل الشأن. أنا لا أنتمى إلى المواطنين الفرنسيين.



1909

* لا تملك حقوقك المدنية؟

* لا .. لا ، هناك جنح ارتكبتها لم يعف عنها أبداً من بينها سرقة ، وحوكم بالسجن لمدة سنتين وأشياء أخرى. ثم إنني هربت من التجنيد مرتين.

* هل أحصيت مجموع الاحكام التي صدرت ضدك ومدتها؟

* نعم ١٤ سنة.

* تكلمت كثيراً عن هرمية المجد ، والتي قد تكون هرمية الجريمة .. ما هي الجريمة الأكثر شاعرية؟

* لم أقل هذا . أردت أن أقول إنه إذا ما وضعت كلمتين أو ثلاثاً أو أربعاً ..جنباً إلى جنب ، فمن الممكن أن تكون أكثر شاعرية من جريمة قتل . إذا كان لى أن أختار بين التعبير الشاعرى بواسطة الكلمات أو التعبير الشاعرى بأفعال -إذا ما وجد- فإننى سأختار التعبير الشاعرى بواسطة الكلام.

* هل هناك سعادة فى الكتابة ؟ هل سبق لك ، وأنت تكتب ، أن أحسست بابتهاج عميق؟

مرة واحدة.

* ماذا كنت تكتب؟

* الحواجز (مسرحية) وما تبقى كان مملاً جداً. إنما كان على أن أكتب حتى أخرج من السجن.

* فى أى سن كتبت الحواجز؟

* أنتظر . أعتقد أنها سنة ١٩٥٦ أو ١٩٥٧ . على أى حال ، كنت أصبح البروفات عندما وصل ديغول إلى الحكم سنة ١٩٥٨ ، أعتقد ، نعم ، هو ذاك.

* أذكر العروض فى مسرح الأوديون كان هناك صف من الشرطة يحرص المسرح ، ما هو الأثر الذى خلفه لديك أن تلعب فى مسرح وطنى يحرسه البوليس؟

* كيفما كان الحال فهو إحساس بأن البوليس غير منسجم مع نفسه ، وكذلك الحكومة الفرنسية.

* وقد أطربك عدم الاتسجام هذا؟

* لاحظت هذا قبل ذلك بكثير.

* ولكن أن تجد الفرصة ليقامها فى الشرك مرة أخرى شئ كهذا يبدو

بالأحرى ممتعا؟.

* نعم وودت لو أعيد الكرة مع ماريا كازاريس فى الكوميديا الفرنسية التى طلبت منى الشرفه (مسرحية) . ولكننى لم أستطع أن أقوم بهذا . لم يكونوا يرغبون فى كازاريس . إذن فهى أكثر خطورة منى.

* مسرحية الهواجز تقدم الموت كشئ غير رهيب فى النهاية وليست له أهمية كبرى . هل هذا رأيك؟.

* إنه رأى مالارميه أيضا : « هذا الغدير القليل العميق .. » تعرف البقية ، يبدو لى الموت ...على أى المرور من الحياة إلى اللاحياة ليس بتلك الدرجة من الحزن ، قليل الخطورة بالنسبة للشخص عندما يغير العبارات العبور من حياة إلى لا حياة بدل من حياة إلى موت . يبدو الأمر دفعة واحدة مغريا تقريبا أليس كذلك؟.

تغيير العبارات هو المهم . تهوين المأساة Dédramatiser . العبارة مستعملة حاليا على نطاق واسع . تهوين الموقف . أهون من الموقف الذى سيجعل منى ميتا باستخدام كلمات أخرى

* مؤلف درامى يهون من الدراما ؟ مؤلف مأساوى يهون من المأساة؟ .
* تماما . إذا كنت حاولت أن أنجز شكلا مسرحيا ما فذلك لأصفى حساباتى مع المجتمع . الآن لم يعد يهمنى . صليت الحسابات .
* لست غاضبا ؟ لا مأساة لك؟ .

* إننى أؤكد هذا بشكل حاسم ، بشكل متأصل لدرجة أننى أتساءل هل الأمر حقيقة لاغضب فيه ولا مأساة . هنا وضعت اصبعك على شئ ما . أعتقد أننى سأموت وأنا غاضب عليكم .
*والحق؟.

* لا أتمنى ألا يكون الأمر كذلك ؟ أنتم لا تستأهلون حقدي؟ .
* ومن الذى يستأهله؟.

* الأشخاص القلائل الذين أحبهم بشكل عميق ، والذين أشفق عليهم .
* حدث لك مع ذلك أن أحببت أوغادا؟.

* أنا لا . أضع نفس التفرقة التى يضعها سارتر بين الأوغاد والآخرين . وبما أننى عاجز عن تعريف الجمال ، أجد نفسى عاجزا وبشكل مطلق عن تعريف

الصب ومعرفة .. الرجل الذى ،تحت نظرتك الموضوعية ،قد تسميه وغدا ،
يصبح غير ذلك تحت نظرتى الذاتية.. انظر عندما أعطى هتلر للفرنسيين
« طريحة » نعم .كنت سعيدا .كنت سعيدا لهذه الطريحة ..لقد كان الفرنسيون
جبناء».

«وما كان يفعله هتلر فى معسكرات الإبادة ،هل هو طريف أيضا؟
أولا لم أكن أعرف حقيقة الأمر . أؤكد لك، ولكن الأمر يتعلق بفرنسا
،وليس بالشعب الألمانى أو الشعب اليهودى أو الشعوب الشيوعية التى قد
يكون هتلر ذبحها . يتعلق الأمر بالتأديب الذى لقنه الجيش الألمانى للجيش
الفرنسى.

«وهذا يدا لك مسلما؟

« مسل جدا، أؤكد لك.

« والطريحة التى تلقاها هتلر بعد ذلك ، هل أمتعتك هى الأخرى؟
« كنت قد أصبحت لا مباليا آنذاك. كان الفرنسيون قد بدأوا تصرفهم
المخزى فى الهند الصينية ،فى الجزائر وفى مدغشقر .. إلخ ، أنت أيضا تعرف
القصة خيرا منى.

« فى المجلد ، أنت لا تنتمى إلى أى وطن؟

« لا بالطبع .

« إذا كان عليكم أن تضعوا تعريفا للوطن ماذا سيكون؟

« لقد فعلتها مرة فى جريدة «الإنسانية» وأنا أمزح . طلبت منى الجريدة
أن أكتب نصا . الوطن بالنسبة لى ثلاثة أو أربعة أشخاص .كنت أنتميت إلى
وطن لو أنى أحارب . وأنا لا رغبة لى فى أن أحارب لا من أجل الفرنسيين ولا
من أجل أىأ كان . ولا حتى من أجل الفهود السود. لم يكن الفهود السود
ليحبذو أن أحارب من أجلهم.

« غالبا ما تكون الحروب حروبا أيديولوجية ، رمزية، والفنان واحد فيها
بالتالى مكانه . ألم تشعر أبدا بأنك تحارب بالقلم؟

« أنت تتكلم كسيمون دى بوفوار .

«ألا يحارب الشخص بالقلم؟

« لا . شاركت بالطبع فى مظاهرات مع سارتر، مع فوكو، ولكن لم يكن

لذلك أية قيمة مع شرطة محترمة جدا . . كانت هذه الشرطة تؤسس تواطؤ معنا جعلتنا شركاءها فى التواطؤ . شرطة سريلية.

* وإن كنت تكتب المرء ليخرج من السجن ، ولكنه لا يغير العالم؟

* لست أنا على أى حال . لا.

* وهل يتغير الآخرون بشكل قوى ؟ هل يتغير القارئ ؟ هل هناك كتب

غيرتك؟

* لا . فى النهاية . أعتقد ، دون الادلاء بحجج ، أعتقد أن هناك عاملا ذاتيا لا أستطيع أن أجد له تسمية أخرى يتعارض مع التربية التى تأتى من الكتب . ومن اللوحات أو من أشياء أخرى ، أى مع التربية التى نتلقى . أنا عاجز عن تبين الحدود . ولكن كل إنسان يصنع غذاءه من كل شئ . إنه لا يتغير من جراء قراءة كتاب أو مشاهدة لوحة أو من جراء موسيقى . إنه يتغير شيئا فشيئا ، ومن كل هذا يصنع شيئا يوافقه .

* وإذا ما قال لك « جلد » أن قراءة جان جينيه قد غيرته ، وأنه صنع منها

غذاءه؟

* إذا ما حدث شئ كهذا فساأطلب منه أدلة .

* أية أدلة؟

* عليه هو أن يدلى بها؟

* بواسطة أفعال؟

* لا أعلم . لا أعتقد أن ما كتبت يمكن أن يبدل الإنسان . يستطيع أن يكره ما كتبت ، أو أن يؤيده . على أى فالجلاد ليس جلادا تماما . أنت الذى تكلمينى الآن ، فيك جزء من المتهم ، لا أستطيع أن أتبينه بشكل واضح ، إنما هذا راجع لكونك لم تضع قدمك أبدا فى الجهة الأخرى .

* ولكن أنظر كم تغير سارتر بسببك؟

* لا .

* أعتقد أن الأمر كذلك؟

* لا . لا . لا .

* أنا متأكد . على أى . لقد تغير بسبب ما كتب منك . هل تغيرت أنت أيضا

بسبب ما كتب؟

* أنا لم أقرأ كل ما كتبه سارتر، قراءته مملة.

* يفض النظر عن هزيمة ١٩٤٠ ، هل هناك أحداث أخرى انشروحت لها بنفس القدر؟.

* نعم كان هناك تصرف الجزائريين والفيتناميين الشماليين الرائع في مواجهة الفرنسيين والأمريكيين بالطبع.

* تضع في نفس المستوى هزيمة هؤلاء ويطولة أولئك؟.

* ليس في نفس المستوى تماما. لقد استطاع الفيتناميون الشماليون، ليس بفضل ذكائهم فحسب، وإنما بسبب تلك الأشياء الرائعة التي اخترعوها، وأشياء أخرى ، استطاعوا أن يجبروا سفير سايفون على أن يحمل علمه تحت إبطه ويرحل. أليس هذا أمرا مضحكا؟.

* يبدو أن اليساريين الفرنسيين القدامى قد اختاروا اللاعنف. كيف كنت ستصرف لو كان الأمر غير هذا، لو سار الإرهاب كما هو الشأن مع الألوية الحمراء؟.

* منذ قليل قلت لك سنى. لن أصلح لشيء كبير ، ما دمت ضعيف البصر، ولكننى بكل تأكيد سأكون بجانبهم.

* حتى ولو أدى هذا إلى وصول دولة أكثر قمعا؟.

* ستكون قمعية ضد من؟ ضد شرذمة من البيض لم يجرعها في شيء ممارسة القمع سواء في الجزائر أو المغرب أو أى مكان آخر..

* بعبارة أخرى منطقكم كالتالى : لا يهم أن تسوم الدول البيض بعضها ما سامته لغيرها؟.

* بشكل من الأشكال. بل أقول : كذلك أحسن.

* لا تبتسم أبدا بهذا الشكل الا عندما تصف مصيبة ما..

* مصيبة من؟ ليست مصائب البؤساء هي التي ستجعلنى أبتسم.

* ولكنك تعرف جيدا أن دولة عندما تتقوى فإن أول من يتكبد الخسارة هم الفقراء.

* الفرنسيون ليسوا فقراء. الفقير الحقيقي في فرنسا هو العامل المهاجر. الفرنسيون ليسوا فقراء. إنهم يتمتعون بامتياز كون فرنسا كانت امبراطورية استعمارية.

* على أية حال هناك خمسة ملايين فرنسي يتقاضون أقل من ٣٠٠٠ فرنك، هذا كثير.

* لا ليس بالقدر. الذى تتصور بالنسبة لـ ٥٢ مليوناً.

* ليس هناك فقراء فى فرنسا؟

* فيما يخص الفرنسيين ،نسبياً أقل من مكان آخر، ربما ليس أقل من ألمانيا الغربية أو السويد ، ولكن أقل من أمريكا حيث حيث هناك فى بعض غيتوات السود يؤس رهيب.

* أنت تضع تمييزاً نهائياً بين يؤس البيض ويؤس الآخرين.

* لست أنا الذى يضع التمييز.

* المسألة تبدو لك أقل جوراً عندما يتعلق الأمر بالبيض ، لا تحرك

شعورك؟

* يعنى أن السود لحد الساعة لم يمسونى بسوء.

* كما لو أن الأمر ليس خطيراً بالنسبة لك إذا ما استعبد الأبيض.

-تماماً.

* أن أكون أبيض فهذه تهمة ؟ نوع من الخطيئة الأولى؟

* لا أعتقد أن الأمر يتعلق بالخطيئة الأولى. ليست تلك الخطيئة التى يتحدث عنها الانجيل لا. إنها خطيئة مقصودة.

* على ما أعتقد لم تكن ترغب فى أن تكون أبيض؟

* كونى ولدت أبيض وتصرفت ضد البيض،فأنا بهذا المعنى لعبت على كل الواجهات فى نفس الآن . أنتشى عندما يتألم البيض وأنا مغمى من طرف السلطة البيضاء ،ما دام جلدى أبيض ولى عينان زرقاوان..

* أنت فى الجانبين معا؟

* نعم ، فى الجانبين معا.

*وضعية تعجيبك؟

* على أى فإنها وضعية سمحت لى بأن أجب الفوضى داخلى أنا نفسى.

* هناك مسرحية اسمها الزنوج تمكئ هذه الأشياء بشكل جيد.

* نعم ، ربما.

* نتحدث عن الجمال أحياناً ، جمال شخص، جمال وجه ،ما هو الجمال

بشكل عام؟.

* ليست هناك علاقة بين جمال وجه أو جسد وبين بيت من شعر راسين بالطبع . إذا ما أشع وجهه وجسد بالنسبة لى فربما لا يحدث نفس الشيء بالنسبة لآخرين.

* لكل جماله إذن ، سواء بالنسبة لراسين أو بالنسبة للوجه ؟ ليس لك تعريف للجمال؟.

* لا . ولكن هل لديك مثل هذا التعريف يهمنى أن أعرف ذلك.

* لا . جمال جيتيه هو المهم . إذا ما قيل لك إن وجهه يشع ببراءة عارمة ، هل يحرجك هذا؟.

* لا .

* هل يجعلك هذا راضيا عن نفسك؟.

* نعم إلى حد ما . لأننا أصبحنا نعرف الآن أن الأبرياء شيطانيون .

* نجد لذة فى أن تحمل وجه البراءة . وتكون عالما أنك شيطانى؟.

* أنا لا أملك وجهها بريئا .عندما تقول لى إننى أملك هذا الوجه، فالأمر كذلك، وإذا فكرت أننى لا أملكه فإننى لا أملكه . ولكننى أحس بمتعة أكبر إذا ما قلت لى إننى أملك هذا الوجه وإنك تفكر بأن الأمر كذلك.

جاتكو فضيحة يا طبقة سطحية:

الذكرى الخامسة لغنى الشعب: الشيخ إمام

أشرف الصباغ

فى العدد (١٥٥) لشهر يوليو ١٩٩٨ م من مجلة « أدب ونقد » نشرت مقالا عن الذكرى الثمانين ليلاد إمام عيسى . وفى العدد (١٩) لشهر يونيو ١٩٩٨ م من مجلة « سطور » نشرت حوارا كنت قد أجريته معه عام ١٩٨٧ م بعد عودته من رحلته إلى الخارج . وقامت مجلة « القاهرة » فى عددها (١٥٢) لشهر أغسطس ١٩٩٥ م بنشر ملف كامل (٧٠ صفحة) عن الشيخ إمام جمعت فيه قدرا ضخما من المقالات التى كتبت عن هذا الفنان منذ عام ١٩٦٨ م، إضافة إلى المقالات التى كانت قد كتبت فى وقتها . ولعل « أدب ونقد » قد نشرت العديد من الموضوعات المهمة عن إمام عيسى قبل رحيله وبعده ، هذا طبعاً إلى جوار ما نشرته مجلة « الكواكب » من مذكرات الشيخ إمام ، ثم عادت « أدب ونقد » لتتنشر الفصل الممنوع من هذه المذكرات . ومع ذلك فحتى الآن لم نر بعد كتابا يجمع ما كتب عن إمام عيسى وبالصور (حتى ولو فى سلسلة كتاب « الأهالى »).

خلال هذه الفترة (١٩٩٦-٢٠٠٠م) وأثناء الزيارات الخاطفة إلى القاهرة ، كان الحديث يدور ويتجدد بينى وبين العديد من المعارف والأصدقاء فى كل

مرة من الشيخ إمام، وعن فنه، وعن حياته بشكل عام. واكتشفت تدريجيا ، خلال هذه السنوات الأربع ، أن هناك إزاحات ما تحدث فى وجهات نظراً أولئك الأصدقاء والمعارف «المثقفين» فبعد أن كان الكثيرون منهم يلازمونه ويزورونه ويأكلون «عيش» من الكتابة عنه وإجراء الحوارات معه ، بعد أن كان الكثيرون يعتبرونه أحد أمجاد فن الموسيقى المصرية والعربية ، ومغنى الشعب ، ورفيق البسطاء ولسان حالهم ، وأحد أهم مفجري النقمة الشعبية المصرية، وأحد أهم المغنين الذين تمكنوا بحرفية عالية من تلحين الكلام وغنائه ، بدأت الآراء «تنزاح» تدريجيا إلى أنه «راجل على باب الله» ومجرد مغن ضرير «حدفته» الظروف إياها فى الطريق إياه . ورغم أنني لا أبرر كل هذه الإزاحات ، إلا أنني أعرف دوافعها وأسبابها وبواعثها والظروف المحيطة بها من جانب المثقفين بشكل عام، والمثقفين الذين رافقوه أو تعاطفوا معه على وجه الخصوص ومع ما يطرحه من رؤية فنية عامة وشاملة . ولكن الأمر الذى سبب لى ألما شديدا وحزنا وتوترا إلى درجة مرضية وصلت إلى حد «المقرف» هو إعلان أحد المطربين فى لقاء خاص صابر أن الشيخ إمام مجرد مغن ضرير ساعدته ظروف ما فلعب على أحزان المثقفين وعاش «داسترزق» على قفلا «السياسة» وأنه -أى هذا المطرب- قابله ذات مرة فى بداية التسعينيات ، على السلم ، فى مبنى الإذاعة والتلفزيون ، فسأله بمسخرية عن سبب مجيئه إلى « هنا » فأجابه الشيخ إمام : أكل عيش»!.

منذ سنوات طويلة والعديد من المخلصين يطالبون بجمع وتحقيق التراث الموسيقى والغنائى لإمام عيسى . وقامت العديد من المجموعات الشبابية بتكوين فرق فنية لإحياء هذا التراث والحفاظ عليه -نسبيا- من الاندثار، ومنها على سبيل المثال فرقة «عفاريت الشيخ إمام» . هذا إلى جانب المحاولات الفردية لبعض الفنانين الشبان لإحياء بعض ألحانه وأغانيه ، والفيلم



التسجيلى الذى أعده المخرج سميح منسى بعنوان « الشيخ يغنى » . ويبدو أن كل هذه المحاولات لم تستثمر وبالتالى لم يتحقق المراد منها بشكل كامل لسبب أو لآخر ، أو لأسباب كثيرة . وطبعاً فمحور المسرح خال تماماً من محاولات بحث وإحياء أعمال إمام عيسى الفنية . وأقصد بذلك أن هناك تجاهلاً بدرجات متفاوتة وابتعاداً عن استخدام أعمال إمام عيسى فى الأعمال المسرحية . ولعل مهرجان القاهرة العالمى للمسرح التجريبي هو أحد أهم الأشكال التى يمكن أن يشارك فيها فنانون مسرحيون بأعمال يتم فيها استخدام موسيقى إمام عيسى وأغانيه ، بل ويمكن إعداد نصوص مسرحية « مونودراما » ليس بالضبط عن إمام عيسى (مع أنه ليس هناك ما يمنع من ذلك) وإنما عن استلهم مثل هذا النمط وإبراز الجوانب الإنسانية / الفنية / التاريخية فيه وفى فنه . والأمر لا يقتصر فقط على المهرجانات وإن كانت حتى عالمية فتجارب مسرحية مهمة مثل تجارب المخرج أحمد إسماعيل يمكنها أن تستوعب مثل هذا الجانب الفنى الشعبى من الموسيقى والغناء خاصة أن أحمد إسماعيل ما زال مصمماً على الاستمرار فى تجاربه فى القرى والنجوع وبين البسطاء بل وحتى فى المسرح القومى على حد سواء . أى أن تجارب هذا المخرج تسير بشكل متواصل ومتنوع وبدأب شديد دون النظر إلى المهرجانات والجوائز ، لأن الهم الأساسى لديه ، الذى يظهر من خلال مسيرته الفنية الطويلة ، هو عمل مسرح مصرى شعبى حقيقى له علاقة بأكبر قدر من الناس ، خاصة الذين لا يمكنهم أن يرتفعوا! إلى مستوى المسرح القومى أو مسرح السلام أو مسرح «الهاز» ، من هنا بدأ أحمد إسماعيل مشواره الفنى بالذهاب إلى هؤلاء الناس فى قراهم ونجوعهم وحواريهم فماذا لو بدأ أحمد إسماعيل التعامل مع تراث إمام عيسى وغيره من فناني مصر الحقيقيين فى إطار مشروعه المسرحي ؟ .

وهكذا فقد كنت قد نويت الكتابة عن الشيخ إمام وعن فنه فى الذكرى

الخامسة لوفاته تماشيا مع السائد : الكتابة عن الراحلين ليس فى ذكرى ميلادهم ، وإنما كما جرى العرف عندنا فى ذكرى وفاتهم! أقول نويت الكتابة مرة أخرى عن فن إمام عيسى وحيويته واحتياج البسطاء إليه ليس فقط فى فترات المد الشعبى والظروف السياسية والاقتصادية السيئة (كما يدعى البعض) ، وإنما أيضا فى كل الفترات والأوقات والظروف. ولكن حدث أن أعدت التفكير فى شكل الموضوع وفى مضمونه أيضا عندما «شرفتني» اللحظة الاجتماعية- الاقتصادية- التاريخية بافتتاح مجمعات «سينسبرى» (أثناء وجودي فى القاهرة فى مارس- فبراير ٢٠٠٠م) ، ثم الأخبار التى توالى بعد ذلك عن إنشاء شركة باسم «مصريتنا» بأيدى عدد كبير من «التجار» المصريين الذين تضررت «تجارتهم» بالدرجة الأولى وربما الوحيدة من قسوة المواجهة مع «أدوات العولمة المتوحشة».

هنا طرحت على نفسى مجموعة من الأسئلة التى بدت ، كما ستبدو لغيري ، ساذجة : لماذا صرحوا بطباعة الأعمال الشعرية الكاملة للشاعر أحمد فؤاد نجم التى تمثل قدرا كبيرا من المادة الغنائية للشيخ إمام ؟ كيف تلقى العديد من قصائد نجم فى الحفلات والمهرجانات الحكومية فى مصر والدول العربية والخليجية ، وهى القصائد التى كانت أحد أسباب اعتقال نجم وإمام معا وفرارهما الدائم، على الرغم من أن القوانين لم تتغير لأن الدستور ببساطة لم يتغير ؟ !هل فعلا كانت ألحان وأغانى إمام عيسى مؤقتة ولحظية وصالحة فقط لـ «الجو» السياسى فى نهاية الستينيات والسبعينيات والثمانينيات ؟ إذن لماذا لم يصرحوا بإذاعة أغانى إمام عيسى فى الاذاعة مثلما صرحوا بإلقاء قصائد نجم فى المهرجانات والاحتفالات العامة ؟ هل أصبحت قصائد نجم مجردة «أنتيكات» يمكن الفرجة عليها ؟ إذن لماذا لا يعتبرون أن أغانى إمام ، بالمرّة ، «أنتيكات» أيضا ويذيعونها على الناس ، وطبعاً سنترك الحكم لهم- أى للناس -استنادا إلى مبادئ الديمقراطية

لا يمكننى ادعاء القدرة على الإجابة عن هذه الأسئلة الصعبة . ولكن ما أعرفه أن « الجو » العام حاليا يعطى إمكانية لأن يصبح محمد عبد الوهاب أحسن الموسيقى العربية ، والسيد مكاوى ، بالقطع إخناتون الموسيقى الشعبية المصرية العربية ، وكاتب هذه السطور ، بما لا شك فيه ، توت عنخ آمون موسيقى الرابابة والأرغول فى نجع حمادى وشارع محمد على وميدان لافوغلى . ناهيك عن أننا سوف نعجز ، حتما ، عن إيجاد أسماء مومياءات أخرى للعديد من عباقرة مصر الموسيقيين بداية من مصطفى الأخضر وعلى قفه وأحمد كبرارة ، ونهاية بحسن النشال وعبد الحفيظ السنهورى عبد الحق الشهير بسماره وأحيانا بأباظة . ويتضح فى النهاية أننا نعمل بتعمد ودأب وإصرار على تفريغ أبطال مصر التاريخيين وإلى جوارهم « حكام » مصر الفراعنة الأشاوس من مضامينهم وتحويلهم فعلا (عاطل مع باطل) إلى مومياءات للسياحة ، ثم نعود لنطلق أسماء هذه المومياءات السياحية على أحياء أو أموات من أجل تضليل القارئ والمستمع وتفريغ التجارب الفنية وأصحابها من مضامينها الحقيقية.

وبما أن نسبة الأمية فى مصر تصل إلى ٦٨٪ (حسب الإحصائيات الحكومية الرسمية) فمن الجائز تماما ، ومن الضرورى ، أن تنتشر « الديمقراطية » الخاصة بنشر الكتب ومن ضمنها طبعاً كتب « الشعر » الذى كان ممنوعا بالقانون وبغيره . بل يمكن أن يصل الأمر إلى إشاعة « الديمقراطية » و« الحرية » على مساحة أوسع لكى تلقى قصائد الشعر - التى كانت ممنوعة - على الملأ ، لنكتشف أن هذا الملأ هو نفس الملأ الذى كان يتناقل هذه القصائد سرا فى زمن ما . إذن فلماذا يعتبرون الشعب قاصرا بالنسبة للديمقراطية فى جانبها السياسى ؟ ولماذا لا تنسحب « الديمقراطية » السعيدة ، « الحرية »

السامقة على أغاني مثل أغاني إمام عيسى؟ هل لأن الـ ٦٨٪) (ولعلني أعتقد أنهم لا يقلون عن ٨٠٪) سوف يفهمونها جيدا ، سوف يثبتون بذلك أنها صالحة حتي في بداية القرن الحادي والعشرين خلافا لادعاءات البعض التي تحاول ترسيخ العكس؟.

إن أغاني إمام عيسى تتوجه إلى قاعدة جماهيرية عريضة، وتلتزم باستخدام لغة هذه القاعدة وثقافتها وأشكال تعبيرها ، وهذا ما يمنحها سحرها وأهميتها وخطورتها حتي في عصور الديمقراطية «السماء» . وبالتالي نجد أنفسنا فعلا أمام فن شعبي حقيقي يرتكز على إيقاعات لحنية شعبية ومونولوجية ساخرة، بل حتي استطاع صاحب هذا الفن أن يستخدم إيقاع التلاوات القرآنية المختلفة لينسج منه إيقاعات لحنية نادرة في الفن الموسيقي المصري. هذا طبعا إلى جانب قدرة إمام عيسى على تأسيس أدائه الغنائي على عناصر أداء سريعة في القدم مثل تنويمات الأطفال والموال الريفي والأهازيج المتنوعة للشارع والحارة والحقل والمصنع والميناء . ولعل هذه العناصر هي التي جعلت من فن إمام عيسى (الموسيقي والآداء) فناً غير تقليدي ، مادة خاماً ضخمة جاهزة في أية لحظة (أقصد لحظة التعامل الجدي معها) للتحويل إلى أشكال أخرى أكثر تطوراً ، فهذه العناصر ترتفع أحيانا إلى حالة التصاعد الدرامي الذي يرتكز في الأساس على ما يسمى بالدراما الموسيقية ، فالكورال يتدخل في الأداء بصورة حيوية ونشطة لا تكرر المعنى ولا تعيد اللازمة ، وإنما يقوم هذا الكورال بتركيب أدائي للمقطع أو المقاطع المهمة لتنشأ تلك التفاعلات ، إذا جاز التعبير ، الدرامية التي نتحدث عنها . أو تسير هذه العناصر في اتجاه وجداني مفعم بالحنان والعز والشفقة ، وهو مستوى روحي آخر استطاع إمام عيسى بحرفية عالية أن يجمع بينه وبين المستوى السابق في مقطع واحد أحيانا وفي مقاطع متتالية في أحيان أخرى مغيرا المقام الموسيقي لينتشئ المستمع من حالات الاستفراق ، أو بالأحرى

الفرق!.

- إيه رأيكم دام عزمكم يا أنتيكات..

هذا الأداء الساخر المفعم بالروح المصرية البسيطة وبالعتاب واللوم والإدانة - هل اندثر ، واندثر معه مضمونه وأبعاده ؟ أم يعتبر أحد أهم وسائل التعبير الفنى - الغنائى لخطاب المواطن المصرى البسيط الموجه لكل أشكال القهر اليومى (ماديا وروحيا) من جانب «تجار الخردة» الذين أصبحوا طواغيت مال وأصحابهم السماسرة الكبار على حد سواء مع «سينسبرى» وتجار البانجو والسلاح؟.

- جاتكو فضيحة

يا طبقة سطحية

وعاملة فضيحة

وجايبه العار.. قروانجيه.. وكتبنجيه .. وسمسارجيه .. وسمساردار..

الأمور واضحة تماما على المستوى الشعرى ، وبالنسبة لمن يستطيع القراءة أو يهاواها من نسبة الـ ٢٠٪ الذين يمكنهم القراءة بشكل عام فى مصر) هذا طبعا إذا كانوا يقرأون جميعا الشعر) ولكن الأداء الموسيقى -الصوتى الساخر سيكون أوضح تماما إذا تمت إذاعة الأغنية على الملأ: الملأ الحقيقى الذى يبلغ ٦٠ مليون نفر فى حاجة ماسة إلى معرفة العلاقة بين «تجارة الخردة» فى منتصف السبعينيات وطواغيت المال! فى نهاية التسعينيات الذين اجتمعوا له عمل جمعية» من أجل مواجهة صاحبهم «سينسبرى» وليس من أجل مساعدة هى ..هى .. مصريتهم!.

لقد تغير، مع الأسف الزمن - ولكن هذه هى سنة الحياة والتطور . وتغيرت المفاهيم ووجهات النظر، ولم يعد هناك إمكانية لتقسيم الناس كما كان يفعل بريخت فى زمنه «نحن وهم» . ومع ذلك فبريخت كان على حق ، وهذا التقسيم صحيح إلى وقتنا هذا رغم ادعاءات التواصل بين الأنا والآخر محليا وعالميا والذى تم مسخ المفهوم الاجتماعى الحقيقى له- أى للتواصل- وطمس المغزى الاجتماعى له بدعوى انتهاء عصر الايديولوجيا!.

جرّ شكل

لا بد أنتى شيوعية

غادة نيبيل

يقولون كل ما يجعلهم يقولون عنك شيوعى أو شيوعية.
أنت تمشى ، لاترجم أحداً بالغيب . لاتريد دم أحد حتى وإن عبرت عن
رغبتك المطمورة فى قتل أعدائك الشخصيين والأشرار فى هذا العالم من
الإسرائيليين والصرب ، أو غيرهم من مرتكبى المذابح والفظائع ، لكنك
تعرف أنك لو أتيت لك الفرصة لن تقتل أحداً . تمشى وملء خلاياك قناعاتك
بأن لأحد من حقه قتل أحد أو اغتصابه أو العمل على تهديمه ، ولأحد - مهما
تعرضت أنت للخديعة والخيانة - يستحق تلك القبائح بمن فيهم أنت . لأحد
من حقه أن يصادر رأياً ولو كان سبباً فى دينك يفضبك ولاحتى من يسب
أهلى . لكن ربما لو أحد قتل أحداً من أهلى أفكر فى الانتقام .. ربما ، شخص
ما يكتب مقالاً يحاسب عليه القانون فى أية دولة من دول العالم . يدعو لقتل
أناس بسماهم وقدم عناوينهم وأرقام هواتفهم وسب كل من فى الدولة . هو
المؤمن وحده كفر نصف المجتمع فى أقل من ساعة جلس يكتب فيها مقالا .
فماذا يحدث ؟

يدعو المفتى ورئيس الوزارة إلى مشاركته فى الوقوف على مصطبة
إيمانه مطالباً بتحويل من كفرهم إلى محاكمة عسكرية . وهو فى هذا يرهب

من يستعديهما تحرشاً وإعلاناً (لنا) وإشهاداً (عليهما) إذ يدعوهما إلى الاستقالة بولولة رخيصة إن لم يفعلا ما يريد شخصه الغيور على الدين و" القيم" أن يفعلاه.

فماذا يحدث؟

نرى المشتومين ، المههدين في حياتهم ، المكفرين (بفتح الفاء) في عقيدتهم .. هم الذين يتم تحويلهم إلى نيابة أمن الدولة، بدلاً من أن تختصم الدولة مع الداعين إلى قتل الناس أو أن توقر الحراسة للمهددة دماؤهم بعد صدور فتاوى وأحكام (هناك برنامج اذاعي أو تليفزيوني - لا أذكر - له هذا الاسم) "المصومين" في حق عقائدهم . وفقط لأن المشتومين كانوا يقومون بوظيفتهم وفق رؤيتهم وفي أماكن عملهم.

ليس مجرد تفويض إلهي أن يستمر المرضى وغير المتحقيقين والراغبين في صور وأحاديث تليفزيونية في التحرك النشط باتجاه تخريب وتهديم كل من يخالف أفكارهم . ولأنا ممن يمكن أن يسعدها إغلاق جريدة أو تجميد نشاط حزب ما . وقتلتها منذ سنوات في إجابة على سؤال من الملحق الثقافي البريطاني أثناء إجراء مقابلة قبل الامتحان للتقدم إلى منحة دراسية في بلده . تطرقنا إلى بعض الجرائد مثل " اللواء الاسلامي" وغيرها . وماقلته هو ما أقوله الآن . لامنع ولاحجب ولا مصادرة لأي شيء أو فكر يختلف معي أو يعيب فيما أؤمن به .

وقتلتها قبل وبعد قراءة رواية " آيات شيطانية" للروائي سلمان رشدي ، التي أذنتني شخصياً في مشاعري الدينية . فما بالنا وهناك فتاوى طالبت في وقت مآبدم رشدي ويريدون الآن الفتك بناس ، وسموهم هم وأهلهم بالكفر والفجور؟ ..

لماذا تروغ الكلمات ؟ حزناً تريد أن تدفن نفسها أوقاتاً.

أنا ، التي لا أملك إلا الكلمة ، ولا أقدر إلاها عندما تكون نزيهة . لا أريد أن

أكف عن أن أؤمن بأن كل ماقد يبقى لو تززع إيماني بعدم استحقاق صاحبها
للقتل مالم تكن نزيهة هو أن أغادر بلدي.

صممت أن لا أكتب عن " وليمة لأعشاب البحر " إلا بعد قراءتها . وفعلت .
وهذا رغم إيماني أنني ، مهما قرأت ، لن أخرج في مظاهرة أطلب دم إنسان
ولا يمكن - مهما وجدت في الكتاب - أن يتبدل هذا . ولا يمكن كذلك أن أؤمن
أنه ليس من حق غيري أن يقرأها مثلما قرأتها .

المهاتما غاندي كان يقول " الله هو الديمقراطية الأعظم لأنه أعطانا حرية أن
نؤمن به أو لا نؤمن " . " بابو " الهندوسي كان يصدق هذا ويصلي كصوفي نذر
نفسه للبحث عن الحقيقة مع المسلم ومع المسيحي بعيداً عن أهداف السياسة
، ولكنه - كما كان يقول - لم يجد نفسه إلا في هندوسيته .

نفضت جريدتي نشر المقال القصير الذي كتبت به بعنوان " نحن نرفض
الوصاية " وكنت واثقة من اعتدال لهجته ثقفتي المسبقة في عدم النشر . منعه
شخص لطالما طالبني سرّاً بالكتابة عن شخص تربطه به علاقات استفادة
ولاصلة له بالإبداع حيث يتحدث عن عظمة الخمار وروائع حالة الإيمان وغير
هذا .

ولطالما ..

نحن لسنا فقط مهديين في إبداعنا وخيالنا - مثل حيدر حيدر - بل
ممنوعون وممنوعات من ممارسة مهنتنا . ونعاقب بحرماننا من نشر رأينا
في صحفنا التي نتقاضى منها أجورنا . وهم يستحلون أن يعطوك أجراً على
عمل أنت قمت به ، وهم صادرون . وفوق هذا حجبوا رأيك وكتابتك عن
غيرهم ليصيبك وهن اللاجدوى أو لتبحث عن مكان آخر يتحمل رأيك .. فإن
تصادف أنه جريدة يقولون عنها " شيوعية " فأنت ولا شك شيوعي .

أنا لم أدخل في قلب أحد لأعرف من المؤمن ومن غير المؤمن . ثم أنى لأريد
أن أدخل في قلب أحد قيسما يتعلق بهكذا أمور . أنا أريد للثنتين ، المؤمن

وغيره، أن يتكلّموا ويكتبوا وينشروا ما يكتبانه وأن يقرأ الجميع، وأن لا يعرض ديوانى الجديد- الذى بدأت أخط قصائده - على الأهر ليقرر ما إذا كان صالحاً للنشر . ولا أريد للأهر أن يقرر لى ما قرأه ولا للفقهاء الذين مازالت محاكمنا تأخذ بشطحاتهم - على لائسانية وعدم منطقية أو اسلامية الكثير من نتائج اجتهاداتهم - أن يحكموا حياتى.

ونعم عندما زرت لبنان وقامت هوجة ضد رئيس الوزراء رفيق الحريري بسبب مشروع تقدم به لإقرار الزواج المدنى (وهو واقع فى لبنان إذ تتم العديد من الزيجات بين الطوائف المختلفة فى قبرص كما حكى لى، ثم توثق فى لبنان) كنت مع الزواج المدنى بدلاً من الزواج الذى قد لا يكون دينياً فى شئ وبالتالى اختلفت مع أبى عند المناقشة واختلفت مع صاحبة محل عجوز مسيحية واتفقت مع ابنتها السيدة الناضجة، وهذا رغم أننى لأوافق لنفسى مثلاً على الزواج العرفى لكنى لأنظر بأية إدانة أو تحقير إلى ممارسيه ولا أتخيل أن أقر منعه إطلاقاً بل العكس. واختلفت - أيضاً - مع أبى.

ونعم. أستطيع أن أجلس مع من يشرب الخمر بأنواعها ولا أشرب، ولا أحب أن يفترض فى أحد أننى أستكين لتخلف موروث إن لم أشرب.

ونعم . لا أقبل أن أردى مايوه بيكىنى لكنى أردى المايوه. لأننى أحب الماء وأحب أن أحسه بجسمى . ولا أحب أن ينظر إلى جسمى الغرباء . لا أستطيع - نفسياً - أن أردى الميكروجيب الذى ارتديته طوال مراهقتى الأولى أو أن أسمع لمن أحب بتقبيلى أمام الناس لكنى لا أراه إلا بينهم ولهذا يروننى . وعندما كنت أرى المحبين يتعانقون ويطيّلون العناق والتقبيل فى الخارج كنت أدير وجهى حرجاً كطفلة أول الأمر ثم بعد أن كبرت كنت قد أمنت أن من الوقاحة أن انظر فأن أطل أراقبهم ليس من حقى على الإطلاق.

ونعم لا أقبل أن يفرض أحد على شيئاً. قد أخرج فى مظاهرة لأطالب بحق طالبة فى ارتداء حجاب أو خمار أو غيره مع يقينى أنها لاتفعل المثل لو

اعتقلت لسبب يرتبط بقناعاتي أو كتابتي أو ممارستي لحريتي الشخصية كما أراها وأحددها. كيف لأحلم لمصر بنظام تنفصل فيه السياسة عن الدين فلا يطالب أحد برأس أحد لأنه أسود أو لأنه مسيحي أو لأنه ملحد أو حتى لأنه شاذ جنسياً.

لكنني أطالب فقط برأس من يتخابر مع جهة أجنبية ضد بلدي ويقبض ثمن ذلك.

أريد دولة لا ألحظ فيها ذلك الدفء المفاجئ والابتسامات بين غرباء يركبون الميكروباص عندما ترى كل واحدة وشم الصليب على معصم الأخرى مثلما رأيت هذا الصباح وأصابني حزن وغمة لأننا نبتسم لبعضنا فقط إذا كنا من نفس الدين.

أما تكفيهم كل تنازلات المؤمنين بالمجتمع المدني في كل المجالات ؟ في الفن حيث سمعت بعض النحاتين يقولون لى أنهم توقفوا عن النحت لسنوات لشكهم أن يكون ذلك حراماً . وخضوع أجيال طلاب الفنون الجميلة لتجريم وجود "موديل" إنساني أمامهم وأمامهن والتعرض للممثلات في شرفهن لأنهن يفعلن تلك الأشياء على الشاشة فكيف ولماذا لانصدق أنهن يفعلنها وراء الشاشة ؟

دوماً من يطالب بالعلمانية يتكلم بصوت أجبر على الخفوت ومن موقف دفاعي لصق الحائط الذي يريدون أن يشقوه ليدخلوه فيه ويجصصوه عليه وعلى أفكاره.

هم عازمون على مواصلة جهادهم حتى الموت تقتيلاً وتذبيحاً لو تركوا . ونحن وهم نعرف المقصود بـ "هم" - هم كل من يرى في القتل حلاً للاختلاف ليستطيع أن يسجد سجدة ثم ينام ليله مطمئناً لاستحقاقه الجنة . هم الذين يمنعون النساء في إيران من الخروج دون حجاب أو يمنعونهن من الخروج أصلاً ولو للتعليم في أفغانستان والذين يذعنونهن من السفر ولو للعلاج باسم

الزواج والشرع ، وهم قتلوا فرج فوده وقتلوا نصر حامد أبو زيد لأن ما فعلوه به وما أزدوا فعله واستوجب حراسته فى سيارات مصفحة تنقله إلى الجامعة لمناقشة رسائل طلبته هو قتل، وهم من جعلوا شخصاً يرشق خنجرأ فى عنق نجيب محفوظ، وهن اللواتى كدن يسعلن بعض الباحثات من على المنصة فى مؤتمر "مائة على كتاب قاسم أمين تحرير المرأة العربية" فى المجلس الأعلى للثقافة وهم من يديرون وجوههم من إثم رؤيتنا بجوارهم - بجوار طهرهم الذى لا يريدون له تلويثاً فى المصاعد إذا كانوا جيرانا لنا وليس لجرد غرض النظر والحياء المحايدين كما فأحدس حتى لتشعر أنك بلا ثياب .. ولكن لا أريد أن يجعلونى أتشبه بهم وأحدس وأفترض .. بالفعل أحتاج لمقاومة ذلك.

كل هذا وألوف من أطفال الشوارع يشحذون وتنتهك طفولتهم عندنا ويوجد فى السجون الإسرائيلية نحو ٢٠٠ معتقل مصرى منذ عامين خلاف ألف وستمائة معتقل فلسطينى وعربى فى سجون إسرائيل غير معروف عنهم شيئاً وغير مسموح لأية هيئة دولية بالوصول إليهم ولامعروف متى سيخرجون ولا أهلهم يعلمون باعتقالهم ولا جنسياتهم معلنة. ثم يتظاهرون البعض فى بلد يحرم التظاهر حتى فى صورته السلمية ليس للمطالبة باطلاق سراح المعتقلين العرب فى تلك السجون ولا للمزيد من الحرية أو لحقوقهم الأساسية . لا . إنهم يتظاهرون طلباً لدماء مواطنين يحزنهم كل ذلك التردى والمتاجرات والقمع والحرمان بكل صنوفه ويؤلمهم - بشكل خاص - النفاق.

ولأنهم وضعوا تعريفاً للشيوعى حتى وإن لم يكن عضواً فى حزب أو خلية تنطبق معظم شروطه على أحد نفسه مستوفاة للكثير مما أتمسك وأقفر به كائناتنا، فلا بد - بدون أن أدري - أن أكون شيوعية.

جرّ شكل

سر الخسة!!

ماجد يوسف

* ما الذى جرى لنا أيها السادة ؟ .. ما هذا الذى يترى فى حياتنا كل يوم من حوادث ووقائع وبلاوى زرقا ، مذهلة فى بشاعتها .. ولم يعد كافيا - بالمرّة- إحالتها إلى الشماعة المصرية التقليدية التى نأت بإجمالها والسماعة (الإهمال) .. فترك صاحب الأجهزة الإشعاعية لجزء مشع ضائع من جهازه (بفرض صدقة) دون الإبلاغ المسئول عنه فى حينه .. ليس مجرد إهمال ، وترك صاحب مصنع الاسكندرية الذى أصيب مصنعه (المكون من ستة أدوار) بحريق سابق، نال من محتاتته وأساساته دون ترميمه وتدعيمه ، بحيث إنه انهار فوراً فوق رؤوس أبطال الدفاع المدنى الذين جاءوا لإنقاذ الناس والمصنع عند حريقه الثانى .. ليس مجرد إهمال ، والنادى .. أو صالة الألعاب ، أو ما شابه ، فى الفندق الفلانى بالغردقة الذى انهار سقفه (لأنه لم يبن على المواصفات السليمة أصلاً) فوق رأس بنت بريئة ، فقضى على حياتها فى الحال .. ليس مجرد إهمال ، ومحطات الترام- المجددة حديثاً! -التي انهارت على رؤوس الناس فى الاسكندرية، وقتلت من قتلّت من الأبرياء لغش المقاول ، وبيع المهندس المختص لضميره ، من أجل حفنة جنيهات .. ليس مجرد إهمال ، والولدان اللذان دفعا حياتهما لتكهرب حمام السباحة بسبب عمال بلهاء! وإدارة نادى ناشئة على ودائها ، يعلن رئيسها بمنتهى البجاجة ، أنه لا علم له

بأى لحامات أو صيانات تجرى فى النادى!.. ليس مجرد إهمال ، وعدم وجود وسائل إسعاف أولية للحوادث فى النادى نفسه (وربما فى غيره من النوادى).. ليس مجرد إهمال ، ثم محاولة إنقاذ أحد الولدين الذى كان به بقية من حياة. واللف على مستشفيات المنطقة (الاستثمارية) ورفضها (جميعا) استقبال الولد، والتعجيل بإنقاذه (أولا) (قبل دفع الرسوم المقررة) حتى مات الولد فى جولة (الفصال) الحقيرة هذه .. إلخ ، كل هذا ليس مجرد (إهمال) يا سادة! .. وإنما هو ، وبكل المعانى ، درجة عالية ، وممتازة ، ومتفردة من (الخسة) التى أصبحت طابعا عاما، وملحما يكاد يكون مصريا بحتا ، ووطنيا محضا للأسف الشديد!.

وفى كل هذه الحالات ، وهذه ليست مصادفة ، يغيب القانون تماما عن الموضوع.. يغيب القانون، والتفتيش ، والمتابعة الحكومية- عن وعلى مستخدمى الأجهزة المشعة، والمنوط بهم -هؤلاء المفتشون- التأكد من سلامة استخدام هذه الوسائل الخطرة والتى لا بد منها فى نفس الوقت، وتأمينها لضمان أمن وسلامة المواطنين ، ومن المفروض ألا يسمح أصلا) للشركات من (هذا النوع) بممارسة أعمالهم باستخدام هذه الوسائل ، إلا بعد التأكد التام من قيامها بإجراءات أمنية ، وإجراءات سلامة معينة ودقيقة وواجبة ، وإلا منعت وحرمت من الترخيص لها بذلك ، ما لم تستوف هذه الاجراءات!.

وآين القانون والرقابة والمتابعة من صاحب مصنع ، أصيب مصنعه بحريق سابق .. كيف يسمح له بمواصلة العمل وحركة العمال فى مصنعه (المكون من ستة طوابق) دون التأكد (القانونى والهندسى والفنى) من صلاحية المكان والمبنى وسلامته ومتانته بعد الحريق الأول! .. وكيف لا تعينه لجنة هندسية وفنية مختصة (وغير مرتشبة ، ولو أن هذا من الصعوبة بمكان!) لتحديد اللازم له ليشتمل على الحد الأدنى من الأمان والقوة والصلاحية لدوران دواب العمل فى المصنع من جديد؟ .. وطبعاً ، لأن مثل

هذا سيكلف صاحب المصنع قليلا أو كثيرا ، فمن المفهوم أنه لن يقوم به طواعية طبعاً ، إذا ترك لضميره فحسب (والضمان فى بلدنا الحر الأمن مية فى العادة ، خصوصا أمام شهوات المال ومغريات اكتنازه والضم به على أمن الآخرين!) ، وإلا لن يمنح القرخيص بإعادة التشغيل والإنتاج ، وساعتها كان سيهرع لعمل اللازم لأننا (نخاف مانختشيش) كما يقول المثل!.

وقل مثل ذلك عن هذه المستشفيات الاستثمارية / السياحية / الفندقية / الشرة / البشعة .. التى تشرى من دماء المصريين ، وأمراضهم ، وأروائهم ، ولا تعرف الرحمة ، ولا الإنسانية إليها سبيلاً .. لابد أن تلزم وزارة الصحة هذه (السلخانات) (بقوة القانون) بمساعدة الناس وإنقاذهم إذ لزم الأمر ودعمت الضرورة .. وإلا منعت عنها تصاريح العمل والممارسة .. تلزمهم باستقبال الصالات الحرجة ، وحالات الطوارئ ، فوراً ، وبلا أى تردد ولا تسويق ، ما دامت الدقائق فى مثل هذه الحالات تفصل بين الحياة والموت ، أولاً .. إنقاذ الحالة .. هذا هو « الطب » أو الأصل فى الطب ، وهذا هو قسم أبقراط الذى يقسمه هؤلاء الأطباء الذين تحولوا -فى شرائع لا بأس بها منهم- إلى تجار ، ورجال أعمال ، وجامعى ثروات بلى طريقة ، وبتوع بيزنس ! .. أين الضمير ؟ .. وأين هذا القسم الإبراطى ؟ .. الذى يسمح لملائكة الرحمة !! بأن يتركوا طفلاً يموت! وفى مقدورهم إنقاذه ! وجاء أهله على (ملا وشهم) بلا نقود ، وبلا استعداد مادى كاف لهؤلاء الزبانية ولا أقول الملائكة ، وفى رحلة تنقل الفتى المسكين من مستشفى استثمارى جشع ، يفقد الطفل البرئ حياته هدراً وطمعاً ونذالة وخسة! ما هذه الخسة يا وزير الصحة ؟ .. وما هذه الخسة يا ناس ؟ .. لماذا تبدلنا إلى هذا الحد ؟ .. لماذا فقدنا إنسانيتنا إلى هذه الدرجة ؟ .. ألا يوجد شهم واحد .. طبيب .. أو ممرض .. أو ممرضة .. يتقدم لينقذ حياة الطفل رغم أنف صاحب المستشفى اللعين .. وينتصر لآدميته وإنسانيته ..

بدلا من أن يقف ضعيفا ، سلبيا متفرجا ، خائفا على القرشين اللئى بياخذهم ، ويتحمل بدون أن يهتز له جفن - أن يشاهد طفلا يموت أمام عينيه ولا يحرك ساكنا ، ومن الممكن جدا- فى هذا البلد الذى يعاشر الإهمال ليل نهار - أن يكون ابنه ، أو ابنته فى نفس الموقف ، فى أى وقت ، وفى كل وقت ، والآنكى أن الطفل الشهيد هو ابن لأحد الأطباء ؟.

جاء من نادى الأطباء ، يعنى حتى حق الزمالة فى المهنة لم يشفع له ، ولم يفلح فى إنقاذه ! .. ما هذا ؟ .. أين نحن ؟ .. وفى أى زمن نعيش ؟ وفى أى عصر نحيا ؟ .. ما هذه الدرجة الفائقة من (الخسة) والندالة ، والتى أصبحنا نمارسها عيانا جهارا ! .. ليلا نهارا بلا حياة ولا خجل .. وكل هذا من أجل الفلوس ..

ملعون أبو الفلوس التى تقتل الحياة ، والتى تزهق الشهامة ، والتى تدمر الإنسانية والتى تصرع الطفولة البريئة ، والتى تحول الإنسان إلى جملة أرقام صماء ، وتشينه فى مجرد رصيد فى البنك عليه أن يرتفع ويرتفع على جثث الأطفال ، وأجساد الناس ، ومآسى البشر ، وأمراض الشعب ، وآلام الأمة .. هل هؤلاء هم ملائكة الرحمة .. أم زبانية (اللحمة) الذين تحول البشر فى أعينهم إلى (بضاعة) للكسب الفاحش ، وسلعة ، للثراء الفاشم .. لا تهزم أنفاس طفل يحتضر ، ولا تدفعهم صرخات أم مكلومة على صغيروها الذى يلفظ أنفاسه ..

ليفتح أحدهم - وبلا تفكير - غرفة العمليات لانقاذ طفل برئ بأى ثمن .. حتى لو كان الثمن فقده لوظيفته .. أو إغضابه للمتوحش صاحب المستشفى .. بل يتركه يموت تحت سمعه ويصره بيلادة وتحجر وجمود وصخرية لا تعرفها الحيوانات .. ببلاش وبلا أى ثمن .. أيها الأنذال .. السفلة .. الإخساء .. خسنتم جميعا .. وسيأتى اليوم الذى تدفعون فيه ثمن هذه الخسة كلكم .. أنتم الذين تمتصون دماء هذا الشعب .. وتثرون على حسابه ، وتعيشون فى ترابه

، وتكبرون برحابتة وبين ظهرائيه .. وتثورمون بدماشه ، وتنتفخون بأمراضه التى تتسببون فيها بلحومكم الفاسدة ، وأغذيتكم الملوثة ، ونفاياتكم القذرة التى تدفونها فى أرضه وتقبضون الثمن الدنى ، وبيئته التى تلوثونها .. وهرموناتكم التى تحقنون بها غذاءه وخضرواتة لتحقيقوا المكاسب الهائلة فى وقت أسرع .. ثم فى النهاية تستكثرون عليه أن تنقذوا طفلا من أطفاله فى لحظة حرجة .. كان ثمن التردد فيها ، حياة الطفل البيرى؟ .. ستدفعون الثمن أيها القتلة ، وما دام القانون المزم والمنظم لكل ذلك غائبا ، فعاذا بملك إلا أن نقول حسبنا الله ونعم الوكيل ، حسبنا الله فى المهندس الغشاش الذى بنى السقف المغشوش الذى قتل البنت البريئة فى الفردقة .. ولم يتابع - فنيا - من قبل لجنة مختصة ، وللمقاول الحرامى ومهندسه الأفاق الذى بنى محطات الترام التى سقطت فوق رؤوس الناس فى الاسكندرية ، ورئيس النادى (المهمل) والعمال الجهلة البلهاء الذين يمدون أسلاك كهرباء فى وقت يعج فيه حمام السباحة بالأطفال ولوزارة الصحة التى تترك ما فى المستشفيات الخاصة ترتفع فى مجتمعنا ، وتكسب من أجسادنا ، وتثرى من أمراضنا بفحش وجشع ، وتبخل علينا فى لحظة خاصة جدا تفرق بين الحياة والموت ، بمبادرة لانقاذ طفل ، ولو حتى على سبيل (أعمل الخير وارميه البحر) أو على سبيل الذكاة عن نفسها ومكاسبها .. هل رخصت الحياة عندنا إلى هذا الحد .. وإلى هذه الدرجة من الخسة والنذالة والتردى الخلقى البشع .. وهو ما يدفعنا إلى طرح السؤال / اللغز الذى لا إجابة واضحة له (فيما أظن) .. ما السر فى استثناء الخسة فى مجتمعنا المصرى إلى هذا الحد ؟! ما سر الخسة ياناس؟

الرباط والمهرجان والشيخ إمام

نورا أمين

لا أعرف على وجه التحديد كيف سافرت أنا تحديداً إلى المغرب لحضور مهرجان الرباط الدولي، والمشاركة في ندوة ينظمها اتحاد كتاب المغرب حول « المرأة والكتابة والمجتمع »، لا أعرف كيف أنهيت إجراءات السفر في زمن جهنمي بعد أن كنت قد أدركت استحالة الوصول في الوقت المحدد، بدت لي رحلة المغرب رحلة مدهشة وغير متوقعة رحلة حملت في جمعيتها مفاجآت وتجارب على عكس رحلات نخطط لها وننتظرها لكننا نعود فارغى الوفاض منها، كانت المغرب هي الرحلة البريئة من الترتيب والتنظيم الذهني، الرحلة إلى مدينة تفتح لك ذراعيها وتمنحك دون أن تطلب وتقرب إليك، وتقربك من نفسك ومن وطنك أنت يا من رأيتها بعيدة وغائبة إن لم تكن غير مثيرة..

في شهر أبريل الماضي تعرفت لأول مرة على المغرب الثقافي من خلال ملتقى الرواية المصرية- المغربية الذي أقامه المجلس الأعلى للثقافة، حصلت على إصدارات أدبية ونقدية، وسمعت مداخلات وشهادات من أدباء ونقاد مغاربة، وشاركتهم في مائدة مستديرة حول رواية الشباب هنا وهناك وتبادلنا الآراء والخوار مع بعض منهم. كانت هذه هي معرفتي الأولى بالمغرب، سبقتها انطباعات من نائمة حول سفريات البعض، وكيف أن المغرب غارق في الطابع الغربي، وكيف أن نساءه يرتدين ما يحلو لهن

ويتحدثن الفرنسية كأنهن خلعن « برقع الحياء »، إلى جانب مشاهدات سينمائية كانت تركز على المغرب السياحي، على مراكز وطينجة، فتصورت أنك أينما ذهبت سوف تجد ساحات بيضاء وحماما يرفرف حولك، وبيوتاً بيضاء صغيرة، وفتيانا يشبهون أبطال الأفلام فى سراويل بيضاء هفافة، وبشرة سمراء لامعة وأنوف دقيقة. وبما أنني لم أجد أى أثر لتلك الانطباعات لدى أصدقائى المغاربة فى ملتقى الرواية ولا فى قراءاتهم، فقد قررت أن ألقى بكل الأقاويل وراء ظهري، وأكتشف الأشياء بنفسى، فعرفت أنه ليس هناك مغرب واحد، بل هناك عدة « مغارب » متعايشة معاً سورياً، كأنها تشكل قارة صغيرة تحوى تعدديات وتنوعات فى الأصول والثقافة واللهجة والتقاليد والعادات الاجتماعية، وبالتالي فى أسلوب الحياة والمعمار ونمط الملابس والمأكّل، فى المغرب هناك أطلس الجبل بالقمم والسفوح، حيث الحياة الجبلية والتجمعات الصغيرة والقبائل الصلبة التى تتحمل حياة السخونة فى الصيف والثلوج فى الشتاء، وهناك المغرب الساحلى الذى يطل على البحر الأبيض المتوسط وعلى المحيط الأطلنطى، هناك المغرب المتأثر بإسبانيا المواجهة له، ويجل طارق، وهناك المغرب المتأثر بالاحتلال الفرنسى، هناك المغرب شبه الدولى مثلما الحال فى طنجة، وهناك المغرب التراثى، وهناك المغرب القروى والبدوى حيث الصحراء تحتل مساحات شاسعة مثلما تحتل الخضرة مساحات شاسعة، ويسود رعى الغنم والماشية، وهناك المغرب العصرى فى الدار البيضاء حيث الإيقاع اللاهث للمدينة الغربية.

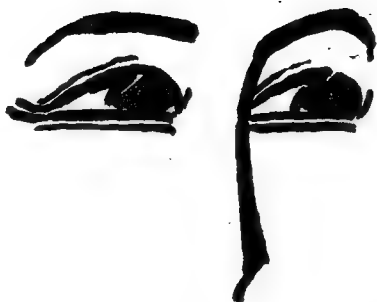
وهناك المغرب الثقافى الذى عشت فى داخله أسبوعين هذه المرة، فوجدته رحباً وخصباً يتسع لاحتواء كل تلك « المغارب »، بل لاحتواء « المشارق » أيضاً أو ثقافات الدول العربية الأخرى، وأولها مصر التى كدت أشعر أن عشاقها المغاربة قد صنعوا منها وطناً مصغراً ودمجوه فى المغرب، ليس فحسب بسبب العلاقات المصرية المغربية الفعالة على كل المستويات، السياسية والثقافية والاجتماعية، وليس فحسب بسبب التأثير الأسطورى للفن الغنائى والسينمائى تحديداً، حيث يحفظ المغاربة عن ظهر قلب مقاطع من الأفلام والأغنيات المصرية التى شكلت وعيهم وقربتهم إلى اللهجة المصرية

، وجعلت الجميع فى الشارع يتعامل مع المصرى كأنه ضيف عاشلى يجب إكرامه بطريقة خاصة ، بل بسبب ذلك الجهود الذى قام به مثقفو المغرب لتقريب المجتمع المصرى للقارئ سواء من خلال نصوص أدبية وروائية (على رأسها رواية محمد برادة مثل صيف لن يتكرر) أم من خلال نقد الأعمال المصرية ، والنشر لمبدعين مصريين مثل سعيد الكفروى الذى شارك فى المهرجان ، فى ندوة حول (القصة القصيرة فى العالم العربى: أسئلة الكتابة والتجربة) وتوزيع أعمالهم الصادرة فى مصر أو فى أقطار عربية أخرى ، وهو مجهود لا يستهان به إذ أن حجم الإقبال على القراءة وشراء الكتب كبير فى المغرب ، وهناك إحساس عام بحب الكتب التى لم يخفت بريقها بسبب وسائل الإعلام الأخرى، أو السينما والفيديو ، كما هى الحال فى مصر .

يجسد مهرجان الرباط الدولى إذن طبيعة المغرب ، فهو نموذج مصغر لثقافات المغرب وتعداتها وفنونها المختلفة ، لكنه لا يكتفى بذلك وحسب ، بل يسعى إلى طموح أكبر فى تجسيد التعددية والحوار والتلاقى باستضافته لدول أخرى كثيرة من الوطن العربى، وشتى بقاع العالم، مؤكداً أن مبدأ التعددية والدمج ينبغى الوفاء له بالانفتاح على تعدديات أخرى وطبائع مغايرة ، فهكذا يبرهن على كونه بوتقة تتجمع فيها الخبرات والتجارب والأوطان ولو كانت متعاكسة المواقع على الخريطة . ولا يقنع المهرجان بذلك بل يصير على نوع آخر من التعددية يتمثل فى عدم الاقتصار -المعتاد- على مجال فنى أو ثقافى واحد يكون هو محور فعاليات المهرجان ، وإنما فتح الأبواب للمشاركة كل الفنون والمجالات الإبداعية ، لكى تتحاور معاً . وتتكامل وتخصب بعضها بعضاً، فهناك الغناء (حيث شارك من مصر على الحجار مع بعض أعضاء فرقته الذين اندمجوا مع الفرقة المغربية ليقدموا حفلاً ضخماً بقصر التازى) ، والسينما (حيث كانت النجمة المصرية نبيلة عبيد ضيفة شرف المهرجان ، وعرضت فيلم «الآخر» قبل مؤتمر صحفى أقامته بمقر عرض الأفلام فى إطار المسابقة الدولية للفيلم التى امتدت أسبوعاً للتنافس على جائزة الحسن الثانى ، من خلال أقسام روائية طويلة وقصيرة ، وتسجيلية ، كما تم تكريم السينما السورية بعرض خمسة أفلام إلى جانب قسم بانوراما السينما المغربية ، وقسم نظرة على السينما النسائية ، وقسم «سينمدرسة»

للأطفال والشباب ،وقسم الاعلام اندى صم فيلما للمخرج المصرى سميح منسى، « لون البحر » ،وفيلما لشحات صديق «سيمفونية الغائب» ،والمسرح (الذى شاركت مصر فى عروضه بمسرحية «ذات الهمة» إخراج عباس أحمد ، وبطولة وفاء الحكيم وسامح الصريطى ، إنتاج مسرح القند ، إلى جانب عروض من تونس والعراق وفلسطين والإمارات)، والفنون الشعبية ، والرياضة (مباريات فى كرة القدم والسلة والتايكوندو والكاراتيه والجودو والتجديف والسباحة والتزحلق على الماء وسباق القوارب)، والفنون التشكيلية والورش (معارض وحلقات عمل) ،والآدب (حيث تولى اتحاد كتاب المغرب تنظيم حفلات توقيع وندوات أدبية وقراءات شعرية : الثقافة العربية والتغيرات الاجتماعية ، الفكر المغربى الحديث والانشغالات الراهنة -وزمن الشعر أمز من الرواية ، المرأة والكتابة والمجتمع فى الوطن العربى).

زخر المهرجان بالحضور الجماهيرى الكبير ، لاسيما فى حفلات المطربة ماجدة الرومى ، وعاشقة الوعد وشقيقها ،وعلى الحجار ، وأكثر منهم مارسيل خليفة الذى أثبت تواصله واحترامه هائلا للجمهور جعل صفوف الشباب تنتظر طوال الليل حول قصر التانزى لامتلاء القاعة . وكذلك حفلات الغناء التراثى ،وتكريم عبد النبى الجرارى، وقد شارك من مصر فى حفلات الموسيقى حسن شرارة وإيناس عبد الدايم وإيمان مصطفى ونبال منيب .وكان الحضور الجماهيرى خارج سياق الغناء منحصرأ فى لقاء الشاعر الكبير محمود درويش الذى كرمه المهرجان ،حيث قرأ قصيدة «جدارية» وألقى بعض النقاد من البلاد العربية «أبحاثا» حول قصائده ،وقدم اللقاء حسن نجمى الشاعر ورئيس اتحاد كتاب المغرب . ولا شك أن مهرجانا بهذه الضخامة لا يمكن أن تضطلع به إلا الحكومة والمؤسسات الكبيرة ،حيث احتشدت مؤسسات مدنية الرباط وبلدياتها مع الوزارات والمراكز الفنية والبنوك والفنادق والخطوط الملكية المغربية والمعاهد الموسيقية والمسرحية والجمعيات الثقافية ، لتمويل وتنظيم المهرجان .والدهش أن المهرجان يقام سنويا ، ويمتد لأسبوعين من ١٠ إلى ٢٤ يونيو ،كما أنه يمتد وينضج كل دورة ، ليس فقط من خلال الفعاليات الرسمية وإنما من خلال حوار المشاركين وتعرفهم بعضهم إلى بعض .والحق يقال ،إننى لأول مرة أجلس إلى مائدة



يجتمع عليها قرابة عشرين مثقفا ، يتحدث كل منهم بلهجة عربية مختلفة ، فكأننى وجدت نفسى فى وسط جغرافيا مصفرة للوطن العربى وثقافته وأرائه المتضاربة المشاكسة والجميلة ، فهكذا أدركت موقعى أكثر ، عندما أدركت موقع الآخر وتشابهاتنا ، وأصبحت الخريطة كائننا حيا ، جماعيا ، متلوناً ، وأصبحت الثقافة ممارسة يومية تلقائية وتفاعلية.

بالرغم من أننى ما زلت لا أعرف على وجه التحديد كيف ذهبت إلى هناك أنا تحديداً ، إلا أننى التقيت بجزء من طفولتى فى جبال المغرب داخل سيارة وحيدة تدور وتتحرف فى مدارات أطلسية ، التقيت مرة أخرى بصوت الشيخ إمام فى ذكراه وكلمات أحمد فؤاد نجم، فتذكرت حوادث كثيرة من طفولتى ومن حياة بلدى ، كانت تكاد تمنحى لولا أن أيقظتها المغرب وأعادتنى إلى هنا بقدر أكبر من الضنين ومن افتقاد معنى الوطن. ولعل هذه المفاجأة هى آخر ما كنت أتوقعه من رحلة لم أكن أتوقعها من الأساس ، مفاجأة أن تسترد قطعة منك فى بلد كنت تعتقد إنها لا يشبهك فى شئ.



الفن ود الألهة الالكترونية،

أشرف ابراهيم

الفن المفاهيمى أو « المعلوم التصورى » أو « التصورية » أو « فن الفكرة Conceptual Art هو مصطلح فنى ينسخ الصورة الحسية التى نراها لإحداث صورة ذهنية فى الإدراك، ومن المعروف أنه بدأ التمهيد لهذا النوع الفنى فى أعمال الفنان الفرنسى مارسيل دوشامب Duchamp، لكن المصطلح استقر فى الستينات على أساس أن العمل الفنى ليس منتجاً فيزيقياً بقدر ما هو مجموعة من أفكار ، ولعل أهم فنان أشاع هذا المصطلح هو الفنان الأمريكى جوزيف كوست Kosuth الذى عرض عمله الشهير « واحد وثلاثة كراس » عام ١٩٦٥.

هذا النوع من الأعمال يقوم فيه الفنان بترجمة فكرته باستخدام أى وسيط يراه مناسباً للتعبير عنها واختيار أى نوع من الخامات يخدم هذه الفكرة دون التقيد بالنوع الفنى التقليدى من تصوير أو حفر أو نحت ، ولقد تطور هذا الفن « فن الفكرة » خلال السنوات الأخيرة من القرن العشرين بشكل ملحوظ ومؤكد إلا أنه غالباً ما يعبر عن فكر ومفاهيم الفنان نفسه على أساس أن العمل الفنى ليس منتجاً جمالياً بقدر ما هو منتج فكرى مترجم تشكيمياً ، ولقد كان لجماعة المحور التى تكونت فى الثمانينات من الفنانين أحمد نوار ، فرغلى عبد الحفيظ ، مصطفى الرزاز ، عبد الرحمن النشار ، السبق فى أول العروض التى تمت فى مصر من هذا النوع فى

الثمانينات بالتحديد عام ١٩٨٠ بقاعة السلام أى نفس مكان مجمع الجزيرة للفنون الآن كذلك، لا يجب أن ننسى اجتهادات الفنانة عفت ناجى والفنان منير كنعان فى الثورة على سطح اللوحة والاطار، الآن هناك مجموعة كبيرة من الفنانين الشبان الذين يمارسون هذا النوع الفنى منهم شادي النشوقاتى، منى مرزوق، وائل شوقى، أمينة منصور، عماد أبو زيد، رحاب الصادق، عادل ثروت، أيمن السمرى وآخرون، من هذا الجيل أيضا الفنان خالد حافظ والذي شهدت القاهرة مؤخرأ واحدا من هذه العروض له بمركز الجزيرة للفنون تحت عنوان «منتصف الطريق إلى البيت والآلة الالكترونية».

تم رصد الفنان خالد حافظ على الساحة التشكيلية بمعرضه تحت عنوان «هلاوس مايو ١٩٨٧ ومنذ ذلك التاريخ تؤكد معارض الفنان طليعية ووعيه الفنى العميق.

فى معرضنا هذا يناقش الفنان على محاور متعددة مجموعة من الأفكار الشائكة والمختلطة والمعقدة أيضا فى آن واحد : حدود ما نعلم ، أسئلة بلا حدود تتكاثر وألف سنة أخرى تمر ١- الحقيقة واللاحقيقة ٢- المقدس واللامقدس ٣- ما نعلم وما لا نعلم على حد قوله فى النص المصاحب للمعرض والذي يقسم فيه العرض إلى أربع حوايط.

حائط أول: آلهة الالكترونية «كلنا قديس» المقدس والاستهلاكى وهو عبارة عن أربع مرايا فى أربع أطر على هيئة الايقونة المصرية القديمة وفى قاعدة كل منها لوحة مفاتيح من تلك النوعية التى تستخدم فى الكمبيوتر - مكتوب على يسار الداخل بيان صغير بالخطوات:

- قف أمام المرأة- إضغط أيا من المفاتيح -انظر أمامك فى المرأة- ميروك قد أصبحت قديساً ..وفى الخلفية أربع دوائر ذهبية متدلية من السقف وكأنها هالات فمن يقف أمام المرأة يرى رأسه وقد توجت بهالة ذهبية.

حائط ثان: حجلة منتصف الطريق «خطوة المانيكان» المتحرك والثابت وهو عبارة عن أربع مانيكانات بأطوال متفاوتة كالتى نراها فى نوافذ

محلات الترتزية ، مغطاة هنا بصور أبيض وأسود ملصقة على الجسد المصنعت ، على أماكن الرؤوس التى فى العادة لا تكون موجودة .هناك هالات من نفس الهالات فى الحائط الأول والمانيكان مثبتة على قدم واحدة من المعدن وتتناثر على الأرض مجموعة من الهالات. الذهبية متراسة فوق بعضها بطريقة عشوائية.

حائط ثالث: منتصف الطريق إلى البيت « ابتلاع الاشياء » ماض يبتلع الحاضر نجد منقولات من مناضد وكراس وزجاجات وكتب ملصقة فى الحائط الابيض جميع هذه الاشياء قص الفنان منها جزءاً وكأن الحائط يبتلعها أو كأن هذه المنقولات تخرج من الحائط.

حائط رابع : اليوم أنا قديس (اللوحة) الفراغ والمضمون ، عبارة عن حائط فارغ طويل فى جانب الایسر لوحة صغيرة.

فى النص المصاحب للعرض يقول الفنان خالد حافظ : « تدور فكرة العرض حول فكرتى المقدس والاستهلاكى ويختص كل حائط بقضية صغرى من الفكرة ،حائط أول المقدس والاستهلاكى (استدعاء الالهة المفضل... شراء لقب قديس للحظة).

حائط ثان: الحركة والسكون ،حائط ثالث : ابتلاع بعد زمنى (الماضى) لبعد زمنى آخر (الحاضر) .حائط رابع : الفراغ والمضمون.

ولنناقش العرض فى ضوء كل هذا . بداية يتعامل الفنان مع الفراغ على اعتبار أنه أربع حوائط وهذا التقسيم وإن كان مكتوباً بصورة جيدة فى النص المصاحب للعرض فى اعتقادى إلا أن الفنان لم يستخدم أرض وسقف القاعة بشكل جيد مع أن لدى الإنسان بصفة عامة ارتباط قوى بين السماء والقدسية فى جميع الأديان حتى الأتفال يظنون أن الله يسكن السماء وعلى المستوى اللغوى العربى والتى تعبر عن طريقة ما فى التفكير المنطقى لدى هذه الشعوب نجد واضحاً أن كل ألفاظ وأفعال السمنو والرفعة والنزاهة ترتبط بالعلو والسماء وكل ألفاظ وأفعال الوضاعة من الدنو والارض ربما فى

هذا الاستخدام الأفقى إشارة إلى بعد الناس عن الله وفقدانهم للإيمان بأسباب السماء والدعاء بالسجود وفى هذا بعد ميتافيزيقى لتعامل الناس مع المقدس والاستهلاكى. فى الحائط الأول هناك أربع مرايا داخل أربع أطر على هيئة الأيقونة المصرية القديمة غير مدهونة على لون الخشب وفى قاعدة كل منها لوحة مفاتيح كالتى تستخدم فى الكمبيوتر مقابل كل واحدة من المرايا هناك هالة إما مائلة إلى الأمام لتبدو على شكل بيضاوى فوق الرأس أو مستقيمة لتبدو على شكل دائرة. فالناظر فى المرآة الأولى ويضغط على أى مفتاح من لوحة المفاتيح ستكون لديه قناعة أن هناك تغييراً ما سيحدث وإنه عندما يرى الدائرة الذهبية تتوج رأسه سيصدق نفسه ويتحول إلى قديس ولكنه حين ينتقل إلى لوحة المفاتيح الثانية لن يجد المرآة ولا الهالة ولكنه سيظل قديساً لأنه فى الجو نفسه وما زال يمارس نفس الطقس وقد عمد الفنان إلى عدم تلوين الأطر المحيطة بالمرايا لتتلون بسهولة فى مخيلة المشاهد دون حواجز من أى نوع كذلك عمد الفنان إلى كسر توقع المتلقى ليطابق الواقع- فى اعتقادى- فكثيراً ما ننظر إلى أنفسنا فى المرآة صباحاً ونحن نحلق الذقن أو نربط أربطة العنق ونعتقد إننا قديسين نتيجة لتراكمات وضغوط العمل والبيت والأولاد وما إلى ذلك يحلو لنا الاعتقاد بإننا قديسون وننزل من بيوتنا على هذا الاعتقاد ومنع بعض عابرى السبيل نقودنا دون دافع حقيقى إلا تحقيق هذه الفكرة ، ربما لنحافظ على هذه الصورة المرسومة فى أذهاننا عن أنفسنا وحسب، وكثيراً ما نتخذ فى حياتنا قرارات ليس لها تبرير سوى إننا قديسون . الفنان خالد حافظ يضع هذه الصورة الكامنة داخل أنفسنا أمام أعيننا . كذلك فى الحائط الثانى يتناول مسألة القداسة التى قد نخلعها على مجرد مانيكان فى قاترينة فى الطريق ، إن المسألة ليست فى قداستنا نحن أنفسنا لأنفسنا بل ما نلقيه على بعض الأشياء ألسنا نقول فى أحاديثنا العادية مثلاً كوب الشاي صباحاً شئ مقدساً فى الحقيقة لا شئ مقدس بالفعل بل نحن الذين نقدر هذا ونحط هذا ونضع

حوله الهالات نزيهه بها ونرجم ذلك.

ولعل الفنان يتساءل فى سخرية حين كتب على أحد المانيكانات كلمة معقم Aseptized إلا أنه معقم فهو مقدس وله هالة مع أن الهالات ملقاة بلا عدد وبإمكان أى واحد أن يشتري أى عدد من الهالات.

مسألة حائط الزمن ذلك الحائط الأبيض الذى تدخل أو تخرج منه المنقولات من كراس ومناضد وزجاجات وكتب اقتطع الفنان جزءاً منها للإيهام بفكرة الدخول والخروج هذه . وفى هذا يقول الفنان : « ترمز الحوائط للماضى المستمر . يبتلع الأشياء من الحاضر بانتظام لأبعاد غير معلومة لنا . تتصارع قوتان جاذبية الماضى والجاذبية المضادة للحاضر الذى يرفض انتهاء اللحظة والدخول فى كنف الماضى » الحوائط البيضاء » ويسمى الفنان هذا الحائط منتصف الطريق إلى البيت (ابتلاع الأشياء) أعتقد أن الفنان فى معالجة هذه القضية الكبرى التى دارت حولها معارك كثيرة فى الفن والتاريخ وما زالت تدور كتبها بشكل جيد فى النص المصاحب للعرض ولكنه لم يقنعنى شخصياً بهذه الفكرة - ولو أنها وجهات نظر - ولكن أعتقد أنه لكونها فكرة ضمن افكار العرض لم تعط بالتركيز المطلوب وأنه كان من الممكن أن تكون فكرة عرض منفرد ، يصف الفنان الحوائط البيضاء بأنها ترمز إلى الماضى المستمر تبتلع الأشياء من الحاضر بانتظام . الجدران من عصر الكهوف وهى تسيّر الإنسان يحفر ويرسم فيها ويسجل تاريخه أيضاً . أذكر ذات مرة وأنا أتحدث مع الفنان عن طفولته يقول إنه كان يرسم بالوان الباستيل والطباشير على كل شئ الجدران فى الشوارع والابواب والترايبيزات » والحيطان فى المنزل . ربما ارتبط ماضى الفنان بالحيطان البيضاء من هذه الناحية . ولكن أعتقد أن تنفيذ الفكرة هى فكرة حركة وانتقال من الماضى إلى الحاضر ومن الحاضر إلى الماضى من المقدس إلى الاستهلاكى وبالعكس أيضاً لم يكن بشكل كاف . كذلك فكرة الحركة فى الحائط الثانى للمانيكانات من حيث تفاوت الطول لكل مانيكان إلا أن فكرة الحركة جاءت هادئة بل ساكنة تماماً ولا أدرى كيف يمكنه أن يجعل هذه الفكرة أكثر

حركة ليعطى لفكرته القوة والسرعة المطلوبة للفكرة الجميلة التى اقتنصها من أن الحوائط تبثّل الأشياء . الحوائط هى التى ترمز للماضى ولماذا يمثل الحائط أيضا الذاكرة على مرحلتين مرحلة تسجيل الوقائع ومرحلة الاستدعاء على حد تعبير الفنان ، ربما لارتباط ذاكرة الفنان وهو طفل بالحوائط دخل فى هذا التصور واعتقد أنه تصور كامن فى الفنان فقديما أجداده استخدموا حوائط المعابد والمقابر والقصور لحفظ الذاكرة الجمعية كتبوا عليها تاريخهم وعاداتهم ونصوصهم المقدسة أيضا وهذه مسألة التسجيل أما مرحلة الاستدعاء ففى قراءة وفك رموز النصوص المكتوبة وأعتقد أن فكرة استخدام الحوائط فى حفظ الذاكرة فكرة قديمة قدم الحضارات الكبرى فى التاريخ الإنسانى ، لكن استخدام الفنان للحائط الأبيض وإضافة هذا البعد الحيادى للحائط من خلال هذا اللون يضى الجانب الشخصى على الحائط الذى يعد من صميم فكر الفن المفاهيمى الذى يعتمد الفنان فى تعبيره عن أفكاره نوع الفنان من طرز الكراسى والمناضد والزجاجات التى يبتلعها الحائط لدلالة على استمرار الزمن وما كان كلاسيكيا أو حديثا سيبتلعه الزمن ويتحول إلى الجانب الآخر- الماضى- الذى استطاع الفنان أن يعطينا الإشارة إلى أن وراء هذا الجدار الأبيض يكمن الماضى وما نقف نحن على أرضيته هو الحاضر الذى يمزج بنا رويداً رويداً إلى حافة الحائط الفاصل بين الماضى والحاضر لنفدوبأسرع ما نتصور ماضياً . استخدم الفنان مرادفات شخصية حميمة تتعلق بالإنسان نفسه فى أى مجتمع وأى ثقافة من قبيل أشياء كالمناضد والكراسى والزجاجات والكتب.

الحائط الأخير خاو إلا من لوحة صغيرة تتعدد عليها رموز الآلهة الالكترونية صاحبة الهالات الذهبية . فى الحقيقة إن اللوحة ليست صغيرة ولكن يمكن تصورها وهى تأخذ مسافة تكاد تقترب من ربع الجدار وربما ينبع ذلك من هيق قاعدة العرض. كذلك فرض الفنان إيقاعه الخاص علينا من خلال بدء العرض من اليسار وليس من اليمين كالعادة فى شعوب الشرق العربى وفى هذا لفحة كبيرة إلى ضرورة النظر إلى مفهوم ومنظور وتصورات الفنان الخاصة المتعلقة بكل القضايا الكبرى التى يتناولها الفنان.

متابعات نقدية

ملاحم شعرية الجسد

منذور لرمل

مصطفى عطيه جمعه

الشعرية كمصطلح ، يقصد بها : مجموعة الأنساق والقوانين التي تحكم العمل الأدبي وتجعله متميزاً . أى السعى إلى التعرف على الخصوصيات والمفردات التي تميز العمل الإبداعي ، عن طريق اكتشاف عناصر الجمال التي تحكم هذا العمل ، أو اكتشاف بعض تلك العناصر ، ودراسة علاقة هذا العنصر مع غيره من مفردات الرؤية والتشكيل فى العمل الشعرى . أما " الجسد " كمفهوم فيقصد به: طريقة التعبير التي يصوغها المبدع مستخدماً فيها الجسد كأداة إبداعية وعنصر رؤيوى يشارك ويتعاقد مع سائر العناصر الأخرى فى تشكيل الإبداع .

ولدى الولوج الأول فى تلك التجربة الشعرية ، نرى ولعاً لدى المبدع بالجسد ، ليس على المستوى الحسى ، بل على الجسد كشكل يحوى الروح بداخله ، أى الذات المبدعة ، فنحن نتلمس رغبة حميمة أو بالأدق انكفاء جزئياً على هذا البناء العضوى الذى يشملنا داخله ، يحاول أن يتأمله ، تأمل الشاعر ، وتأمل المتسائل ، الذى يعمل على إشراك الجسد ضمن الخطاب

الشعري ، وضمن حركة القصيد ، وضمن العلاقة التي يحاول أن يقيمها مع الواقع المعاش.

ومن خلال هذا التطور نستطيع أن نحدد مجموعة من المحاور الشعرية التي دار الجسد في ثناياها ، مقيما علاقة جدلية وانعكاسية مع عناصرها.

الجسد / العنوان:

حيث يكون الجسد عنصراً فارقاً منذ البدء ، وأعنى به العنوان ، فالجسد كلفظ ، هو مدخل لصوغ الرؤية ، جاثم ملح في عناوين القصائد : من مثل " جسد يحتاج لتهديب " ، " علنى أخطو على جسدي " ، هذا على مستوى اللفظ بذاته حيث الجسد هم يسيطر على الحالة ، ويكون هدفاً للتهديب أو الامحاء لصالح الروح . أما عناصر الجسد فنجد منها قصائد : " عارية .. سوف ترقص " ، " امرأة تدخل " ، هنا الجسد الأنثوي ، ضمن المنظومة الشعرية المعتادة التي تتعامل مع المرأة في هيئات عدة ، الجسد أولها ، أو نلمس العناوين التي تحوى الجسد الحركي ، مثل قصائد : " أومض كيما تحوم الفراشات " ، " سابكى .. ربما انفعلت بلادى " ، " كما يمشى الغزاة " ، " أتهبى كى تنحلى بى " فكان الجسد الشاعر يتهبى لتكوين علاقة جدلية أساسها الجسد ، فى علاقته بالأشياء والعالم ، على مستوى الجزء والكل ، وهذا يدل على الرؤية المتكاملة التي تغلف العالم الشعري فى هذا الديوان ، والتي تعى وتسمى إلى محاولة فهم العضوية الجسدية ضمن القصيد ، أى استيعاب الجسد ليكون ضمن الحوار الجدلى الذى يجتهد فى تكوينه مع عالمه الداخلى ، وعالمه الخارجى.

الجسد / الرؤية :

" جسد عراه الوجد

وخشته الريح

فغطاه الوقت بإمكانه ..

هذا هو المدخل الأول لأولى قصائد الديوان ، يعلن عن التمييز الجزئى الذى يحاول أن يطرحه الشاعر ، وقد أثر أن يكون هذا ضمن أول قصيدة ، التي حملت فى عنوانها دلالة توحى بالرقبة الحميمة فى السعى لاكتشاف كنه هذا الكائن المادى ، والتخلص من زوائده . وتصبح الروح وسيلة لتعرية الجسد " عراه الوجد " ، وتحول " الريح " كعنصر خارجى من العالم ، إلى وسيلة ثانية

للتعري . أى يتضافر الحسى باللاحسى ، والداخلى بالخارجى ، فى المحاولة
الدوائية لطرح السؤال :

" جسد يحتاج لتهديب زوائده

مازال يخضج بالأسئلة

ويحن إلى شئ ما:

لاتبلغه الأعمار .."

هذا السؤال هو المحور الذى دارت حوله القصيدة ، وهو يحمل نوعاً من
الطزاجة ، وإن كان السؤال ومحاولة التهديب تخضع لأن يصبح فى النهاية
:" جسد بللورى ، شفاف " ، فى رؤية نشم منها رائحة التصوف والرهينة
التي رأت الجسد مجرد حاوية للروح ، يشدها إلى لذاته ، فأصبحت دهوة
التهديب ماهى إلا محاولة للتحلل من ربة المادة ، كى تكون شفافية فقط ،
لاتحوى إلا الروح . ويتأكد الأمر مع القصيدة التالية لهذه القصيدة ، حيث
يقول :

" ياأيتها الروح ، انطلقى ،

حلى ، فى جسد شفاف

قد هيئ لى .."

بذلك تتكامل الرؤية للجسد ، ويصبح التهديب مجرد شعار ، ومدخل
للتخلص من سلطان المادة فى اتساق مع الرؤى التى تنظر بعلياء الجسد ،
ضمن المفهوم الاثنى الذى فصل بينهما .

ويقول مخاطباً أميمة (كجسد) : هيا كلينى / علنى أخطو على جسدى /
وأزعق ذى فنونى / علنى أنجو بروحى .. وتزداد الرؤية ليصبح الجسد
مرادفا لكل ماهو مادى فى الحياة ، فيكون هو المدينة : " .. مدينة راودته .. /
وغلقت أبوابها ، ورمته فى النيل المهجر .. وتضمحل حتى تصل إلى الجسد
العضو ، حين كان فى أقصى الحديقة يمارس لذة جسدية ، على فتاة (جسد)
ذات رتوش يتخيلها ، فتدخل فجأة المرأة/ الجسد ..

" تمر قدامى ، ومن خلفى ،

وكننت فى أقصى الحديقة

غارقا فى التبخ ، محتوقاً دمس "

استحالت التجربة إلى علاقة عنوانها الإعجاب الجسدى ، والحيرة فى التسعير للوصول إلى المرأة الجسد والغموض ، وظل السؤال غامضاً لديه ، وإن أوحى الأسطر بما فيه.

فالمراة عادت - كالمعتاد - شبحاً وفنتة وسؤالاً ، يطارد الذات الشاعرة ، فتضمحل رؤيته ، ويفرق فى سؤال أعاده إلى المادية المألوفة . ونفس الأمر فى قصيدة " امرأة تدخل " ، حيث يكون الجسد ممثلاً فى المراة وهى تدخل فى صومعته (الشاعر المعتزل فى بناء عاج) ، ويكون التكرار بالشكل الهرمى هو مفتتح القصيدة ، فى تجربة تشى بالحرص على ابتداء بناء جمالى ، بحوار يتشابه مع الروى المنزل ، فتكون المراة مع ولوجنا فى الحوار هى شيطان الشاعر الذى يطل عليه ، ويبقى سؤالاً معلقاً فى فضاء النص . نفس الرؤية التى نراها فى عراك الشاعر مع الأنثى القصيدة:

" يا امرأة لها طعم الفضيحة / فى غناء الحى / يا امرأة / تزوق لى خرائبها / لأهبط .. "

وهكذا يكون الجسد ذا معزوفة متعددة الأوتار ، حاول أن يكون سؤالاً فلسفياً ، ولكن ظلت تيهات الشعراء التى تراوحه بين القصيدة والأنثى تطارده وبكثرة.

الجسد / الحركة والفعل الإيجابى:

تتحول مواجهات الشاعر للحياة ، ومحاولته التغيرية لما حوله ، إلى تعبير جسدى يفارق ما ندرج عليه أصحاب الكلم ، وفى إشارة إلى أن عالمنا لم تعد الكلمة فيه وسيلة المثقف للتغيير ، بل انزلق مثل غيره ، بالجسد كفعل إيجابى تغيبرى ، وإن كان لا يتم إلا بالكلمات وعلى الورق فقط . يقول:

" سوف أفرك شمسى ببطء

وأشعل أعضاء جسمى

وأغمض حيناً ..

.. ولسوف أذب على ركبتى ، فيحدث برق ورعد (فهل سوف تمطر ؟) ..
ويزداد الأمر ، لتصبح مفردات الجسد ، وسيلة أخرى للإفصاح .. " يا أيممة ،
حركى هذا الهواء / لعل (أسماء) التى راحت تفتنى / أستطيع سماعها ..
فصارت حركة الهواء إيذاناً بمحو كل ظلام وغشاوة ، فلجأ إلى الفعل

الجسدى ، فى يأس من فعل الكلمة . ويكون تأمل الجسد فى تعبيراته ،
والشرطى يمرق باحثاً : " ياترى ، هل شم رائحة ارتعاشك ؟ / أم ترى لمج
اصطكاك الركبتين ؟ "

فهل يسخر من ترامل الحواس ، وهو يتأمل اختباءه ، أم غرق فى هروبه
فالتبس الأمر عليه ؟ ، فهل سيشم الشرطى ارتعاشه أطرافه ، أم يلمح فعل
الاصطكاك الصوتى ؟

ويصبح التعبير الجسدى هو البطل والفعل المسيطر ، وتتروى الصورة
ويكون الموقف الحركى هو عنوان الإبداع ، وهذا ملحوظ فى الكثير من
القصائد .. فأمضى .. أنور مع الأرض / حتى أدوخ / وحين أجوع / سأمى
السلام / على شجر / ثم أمضى / إلى حائط آيل للغناء " صار التعبير بكل
ماهو جسدى من اللف والجوع والكلام والمضى ، هو الطريقة المثلى لاقامة
علاقة عضوية حية مع كل ماهو كائن حول الشاعر .

الجسد / التناص :

" مدينة راودته وغلقت أبوابها .. " غلقت أبوابها / ووضعتك فى
التابوت / واستبكت عليك الطيبين " فالتناص مع قصة يوسف فى القرآن
فى مشهد الفتنة ، حيث استعطف ، وفى إلقاء الجسد الطفل فى قصة موسى
القرآنية ، حيث ظل الطفل فى التابوت وحيداً . إنه التناص الذى ينصهر فى
بوتقه التجربة ، ليجعل الجسد عنواناً للعبة فى هذا العالم ، وموحياً بالغربة
والوحشة للذات الشاعرة ، كأنها طفل فى تابوت وسط الماء . وأيضاً فى
قصيدة " امرأة تدخل " : التناص مع حادثة نزول الوحي ، حيث الغار
والشاعر جسد قابع فى تأمل ، والوحي جسد أنثوى ملائكى ، يطرح أسئلة ،
يعجز الشاعر عن إجابتها رغم أنها لاتزيد عن " اقرأ .. اقرأ .. " ويكون الرد
على الوحي الشعرى ، بفعل جسدى ، يتراوح بين الجوع والصوم والصمت .

سعادة متأخرة للقبح أيضاً شعريته

محمد عبد الحميد دغيدى

الواقع أن قراءتنا لهذا الديوان الشعري تقترب كما سيتضح الآن من قراءتنا لمجموعة قصصية ، وهذه فى رأى طبيعة الحديث عما يطلق عليه (قصيدة النثر) فشعرية الحدث وليس شعرية القصيدة هى مايتكئ عليه الشاعر (فتحنى عبد الله) فى ديوانه (سعادة متأخرة) ..

فى قصيدته (قهوة الصباح) مثلا رغم أن الحدث أو الأحداث هنا سلبية ومظلمة ، إلا أنها تعبر بحق عن الواقع الذى نعيشه ، الدرك الأسفل الذى هبطنا إليه ، من ناحية أخرى تتناغم تلك الأحداث معا محققة ايقاع الظلمة والهبوط : " الذين برروا له / أن يقتل أصدقاءه / أثناء لذتهم / ويضع أحشاءهم فى أكياس صغيرة / فهم فى حاجة إلى هذه السعادة / ولا يصلون إلى ذروتها / إلا اذا لعبوا / بعظام مصارعين من الدرجة الأولى / وهم يشربون قهوتهم فى افطار الصباح " كذلك فى قصيدة (ابريل أيها الطيب) يتناغم الشعور بطيبة هذا الشهر ، مع سببية هذا الشعور ، فهو يعطينا فرصة للهروب من الواقع من الآتى إلى الآخر الذى يستحيل وجوده رغم بساطته ، إنه يعطينا فرصة لاختلاق ما ليس له أساس من الصحة ، باختصار يعطينا فرصة للكذب خاصة على أنفسنا حتى نستطيع مواصلة الحياة ، ومن هنا تنبع شعرية الحدث حتى لو كان كذبا : " ابريل أيها الطيب / بقرات أبى / فى حاجة إلى دواء / وأولادى مصابون بأمراض الكلاب / ولحيتى طويلة / وأحبها هكذا / لأننى وحيد / وزفعالى كلها لى " .

وفى قصيدة (لايسوا الكاربوى) يطرح الشاعر سؤاله : هل أصبحنا مثل (لايس الكاربوى) ؟ فصار كل منا ملاكما ملتحميا محتفلا بمسده فى جيبه جاهزا للانطلاق فى كل وقت ؟ وبهذا التساؤل يتزن الأمر ، وتخفت حدة الاندهاش من ورود فعل القتل سبع مرات فى القصيدة ، وبذلك يتحقق

ما يشبه التوافق أو التماثل في الحدث .. مثلما تتناغم الأحداث معا في قصيدة (قد تضحك زوجتي مما أفعل) لتشكيل إيقاع الزمن الرديء، فمن تولد الشك في قلب اليقين " مؤكد / أننى بذراعين / ولا ينقصنى ما أخاف عليه " إلى القسوة والتحجر والجمود " وعليهم كذلك أن يحرقوا جثتى / إذا لزم الأمر " إلى التناقض المرعب بين الرقة والعنف بين الجمال والقبح " ورجل بمفرده / يحمل البيانو / أصابعه كلها نحيلة / يترك الجثة في هدوء " إلى القيود التى يضعها البعض على الآخرين حتى عند ممارسة أبسط حقوقهم " ولحيتي / التى تسبب كثيرا من العرج" تتكامل فى الذهن صورة الآتى بكل نواقصه وعيوبه ، وتتوارد الى السمع معزوفاته المتوالية لتصنع معا لحنة الشاذ الغريب ..

والشاعر يتوقع منا كقراء أن نتساءل فى دهشة : هل للقبح إيقاعه مثلما للجمال إيقاعه ؟ فيجبنا بوضوح من خلال احدى قصائده بعنوان (تحت حرارة منخفضة) فيقول: " ولا ينقصه فى هذا / الا أن يصرخ / حتى يعثر على الإيقاع المناسب .."

x ويطرح لنا فى قصيدة (الاعلان عن البهجة) صورة لشعرية الحدث الأسود أو الحدث الآخر ، فتلك مشاهد عديدة للتناقض وحده : رجال الدين الذين يرتدون الملابس القصيرة رغم أنهم مثال الاحتشام والوقار " فشارك قسيسين / بملابس قصيرة " ومعنى البطولة الذى اقترن فى هذا الزمان بفعل الجريمة واقتراف الذنب " ولكى يصبح بطلا / عليه من الآن / أن يقتل أمه " وتلوث من كانوا يرمزون للأصالة والثبات ويشار إليهم عند الحديث عن الفضيلة والطهر " فلاحين أخذوا على أنفسهم / أن يمارسوا الجنس / فى احتفال عام " .. تلك المشاهد تعزف كلها على نغمة التردى والهبوط ..

والواقع أن القتل هو ذروة الإيقاع لتلك النغمات النشاز التى أصبحت سمة لهذا العصر ، ولذلك لم يكن غريبا أن يتردد بشكل منتظم فى قصائد الديوان الحديث عن القتل والقتلة ومشاهد الجثث .. وهذا نموذج آخر لشعرية الحدث الآخر أو الوجه الآخر للحدث ، فإذا اعتبرنا الجمال وجهه الأول ، يكون القبح وجهه الثانى أو الآخر ، هنا " شعرية العنف " ، فالكلمة يعزف على وتر العنف فى قصيدة (سعادة متأخرة) والتى يحمل الديوان عنوانها :

المصارعون السود وجنازة الحفريات وممثلة الاغراء وهى تقطع أصابعها بالبلطة الصغيرة والمتفرجون الذين يمارسون الجنس والزوجة التى تأكل لحم زوجها .. كل ذلك يشكل مع نداء الشاعر بأن نصدق وكالات الأنباء والتصريح الخفى بالنفاق والكذب السائدين فى هذا الواقع ، إيقاعا غريبا للقبح أو الوجه الآخر للحدث ..

ويتوالى تتابع وتواتر المتناقضات المدهشة التى يتسم بها هذا العالم فى قصيدة (أترك إبطالى حسب أدوارهم) ، فكيف تجتمع حرارة اليد مع وجود كثير من القتلئ بها ؟ وكيف تقتترن الأزهار وهى وسيلة التواصل والتعبير بالبرودة ؟ وكيف يصاحب التحريض على النظافة والنقاء تراكم العديد من الجثث ؟ .. وليس من قبيل المصادفة إذن ما مامنا نتحدث عن شعرية القبح ، أن يتردد ذكر اللوطيين فى الديوان كرمز لانتشار الإباحية والرنيلة ، وتكرار ذكرهم هنا يمثل دقات انذار لما يمكن أن نصيره ونؤول اليه ، بمعنى آخر يتحول هذا التكرار الى مايشبه الرنين الذى يطن فى آذاننا ، إنه جانب آخر من إيقاعية القبح ، معزوفة أخرى من معزوفاته .. ولكن يبقى السؤال : هل تكفى إيقاعية الحدث وحدها لتحقيق التأثير والتحول ومن ثم الاستمرار والبقاء والخلود ؟ وبمعنى آخر أكثر بساطة ووضوحا : هل تغنيها إيقاعية الحدث من إيقاعية القصيدة ؟

« كوميديا الانسجام »

لوحات من الشجن والبراءة

شريف صالح

ربما يصدم القارئ حين يجد القصة تمر أمامه من السحاب . سطران أو عدة أسطر .. فتبدو المجموعة القصصية « كوميديا الانسجام » الصادرة عن

دار مركز الحضارة لمحمد بركة مجرد مجموعة من الصور والعبارات الخلابة والوصف الطفولي للأنثى مما يدفع القارئ للتساؤل : أين الحكمة ؟ ما الذى تقوله هذه القصة الخاطفة ؟

وليس هناك مفر من أن يبحث المتلقى عن مفاتيح أخرى للدخول إلى العالم القصصى لمحمد بركة.

المفتاح الأساسى لكشف شفرة النص يمكن استلهاه من الاتجاه التأثيرى فى الفن التشكيلى والموسيقى والأدب . يؤرخ البعض لبداية هذا الاتجاه عندما رسم كلودمونييه كنيسة ويستمنستر المطلة على نهر التايمز عام ١٨٧٤م ، لقد بدت معالم الكنيسة غارقة فى الضباب ، وكان الفنان لا يصور الكنيسة ذاتها وإنما يصور انطباعة الشخصى عن الكنيسة.

وقد تطور الاتجاه التأثيرى على يد مانيه وريشوار وديجا وغيرهم وأصبح يهتم بالتأثير العابر لتداخلات الضوء واللون والحركة ، وإهمال الخطوط الخارجية المحددة والألوان القاطعة ، كذلك أصبح الاهتمام بالطبيعة على نفس درجة الاهتمام بالموضوعات الانسانية.

وفى الموسيقى أيضاً نجد أعمال ديپوسى تعنى باللغة الوصفية ، حيث يخلق بأبسط الوسائل وأقل التفاصيل ونلمس جو التصوير من عناوين مقطوعاته الموسيقية مثل « خطوات على الثلج » ، « سحب » ، « روض تحت المطر » : فى حين ظهرت الانطباعية فى الأدب فى بواكير أعمال بودلير ومالارميه ، وكانت تعنى الرؤية الذاتية فى مقابل الرؤية الموضوعية ، وكان الكاتب يعبر عن انطباع ذاتى أو حالة مزاجية فى عمل فنى ما .

وإذا ما استعدنا ما قلناه آنفاً عن الاتجاه التأثيرى ، لوجدنا أن أهم تقنياته تتمثل فى : الإيحاء ، الوصفية ، التلقائية ، الشعرية ، الغموض ، استكناه الذات . وهذه السمات مجتمعة تشكل العالم القصصى - لخصوص كوميديا الانسجام - جمالياً . بمعنى أن كل نص هو لوحة وصفية أو " كادر " مرسوم بحسب انطباعى ، يظهر هذا من العناوين مثل : « هكذا كالحلم » ، « ثلاث غيمات » ، « شعر البنات » ، « المارد المرح » . ومن وراء العناوين تظهر قريته النائية - كفر سعد البلد - بشكل جمالى ينتمى قلباً وقالباً إلى التأثيرية . فى نص « هكذا كالحلم » يقول القاص فى ص ١٧ : « رأيت المطر يهدأ . كان ذلك

شبه مؤكد حين نظرت إلى سطح التربة . ومن فوق السطوح ، غدت المزاريب أقل انفعالاً وأكثر رزانة .. ثم يضيف : انفرج تكتل السحب الداكنة قليلاً ، وأطلت السماء على الأرض بعشرات العيون الزرقاء . وتسلك أشعة الشمس مبللة وهى تمسح أوراق الكافور المفسولة بالمطر « أئى ليس فى القرية فوضى أو قمامة أو طين أو حتى أطفال مصابون بالهزال يرتعشون من البرد ، بل إننا أمام قرية المطر والغموض والشاعرية التى تذكرنا بشاعرية السياب - لاأدرى لماذا السياب بالذات! - ثم يتكرر المطر فى لوحات بركة المستدعاة من منطقة وامضة ، يتصارع فيها التخيل والتذكر ، مثلما نجد فى نص " معلش " ونص " أحمد حبيبة يتذكر " .

هناك فى تلك اللوحات احتفاء بالطبيعة وبالأنسان على السواء ، الجد المجوز يخرج تحت المطر ليعالج بفأسه الصغيرة آثار المطر ، وأحد الفلاحين - فى خلفية الصورة - يسير بعربته متوخياً السيول .. وإذا لم يجد فى الطبيعة مايعزز الإحساس بالجمال فإنه يبحث عنه من خلال امرأة ريفية تفسل الأرائى على شاطئ التربة ، فتوصف بأنها ذات جسد عفى ونهدين متلئين فى لون الحليب يرتجان خفيفاً ، وخضراء العينين أيضاً .. وبضربة فرشاة سريعة يكمل القاص صورتها بأن « زراير فتحة الصدر الثلاثة المقطوعة وكان يبقى أجمل لو كانت قد استغنت عن دبوس قليل الحيلة تشبكه كبديل فلا يستر شيئاً " ص ٢٠ .. لاأظن أن قطع الزراير الثلاثة كان بسبب فقر المرأة وإنما لأن القاص يريد تكوين انطباع أكثر إثارة يجعل القروية العفية التى تعمل بحماسة كاحدى فائزات الأساطير .

هكذا تمتزج الشخوص والأشياء فى مساحة مشتركة بين الذاكرة والخيال وتتجاوز القرية حدود الواقع المعاش لتتجلى علينا مرة أخرى فى واقع مختلف نسجه القاص بطريقة لا تخلو من غموض أحياناً ، فتستدعى صورة القرية عند القاص صورة عتيقة لكنيسة ويستمتسر الغارقة فى ضباب لندن .

نصومى محمد بركة ليست صوراً ساكنة ، بل إنها متوترة توتر اللحظة ورهافتها ، تتكاثر الأزمنة : الماضى والحاضر والمستقبل ، فى لحظة حادة مشحونة تضيئ على المكان اهتزازاً وحيوية . لذلك يبدو المكان شاهداً على

التحولات الدرامية ، وعلى غنائية المشاعر المتوارية ، فلا يوصف ببرود وحياد ظاهري لكنه يوصف بحركة نتناغم مع حركة المشاعر وتحول الأحاسيس ، ومن نماذج هذا المكان دكان بائع التموين من خلال قصة « الأرشييف » ص ١٢ أو الغرفة الصغيرة ومفرداتها لحظة انقطاع التيار الكهربائي في قصة « ينسأني الموت » ص ٢٣ .

بالطبع لا يقتصر القاص على استدعاء أماكن ما في لحظة توتر صافية ، هناك أيضا أشخاص ترسم لهم « بورتريهات » ملأى بالحزن والشجن ، في تحول مكثفة مثلما نجد في قصة « عشيقه الحاج معوض » وهي واحدة من أفضل قصص المجموعة ، إذ تطالعنا صورة في غاية الحيوية والشجن للحاج معوض وهو يواجه لحظته الأخيرة (ص ٢٥)

أي أن الأشخاص والأماكن - داخل اللوحة - يستمدون ثراءهم من خلال كثافة اللحظة وتوترها الدرامي ، في دقائق لغوية خاطفة تتواءم تماما مع الدقة الشعورية . فذاكرة القاص لا تستدعي موقفاً بعينه كي تصفه ببرود وإنما تستعيد إحساساً مرأوغاً (وهذا أصعب) .. هذه العودة إلى اليوم الصور الكامن في الذاكرة يتم دون بناء درامي متماسك وتقليدي إنما يدخل الكاتب إليه بحيل بسيطة تظهر في افتتاحياته المتعددة :

مثل « أذكر أنه كان يوم الاحتفال بمولد النبي ، أي يوم الحلاوة وذكر انبط » ص ٩ . ومن خلال توتر اللحظة يشركنا القاص في استعادة ذاته بل ذواته أيضاً .

استعادة بريئة لذاكرة مثقوبة وحيل باللحظات ، فإذا انحصر ينتهي بانتهاء الإحساس باللحظة ، وليس بالنهاية التقنيية المتعارف عليها . وعين يتجدد إحساس آخر حول نفس اللحظة / اللقطة فهذا يعني تدماً جديداً .. وهكذا .. لهذا كتب الراوي من موت أخيه طارق نصين وكأنه فحسب يغير زاوية النظر إلى ذات الكادر تبعاً للإحساس ، وعندما يتحدث على قصة لعبد الحكيم قاسم عنوانها « صاحبة المنزل » وينتهي إحساسه الانتطباعي بالانحصر حين يقول إن قاسم درويش طيب ، (ص ١٧) .. ويشير راع يتجدد الإحساس بالموقف نفسه (وليس يتاسم كاتب القصة) فيعيد القاص رسماً من جديد وبحساسية جيلة - لاجيل عبد الحكيم قاسم - وذلك في قصته الأخيرة (ص ٣٧)

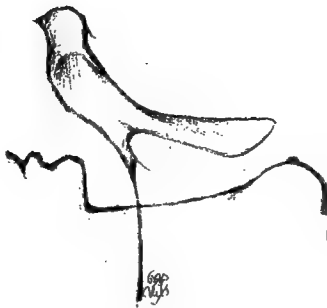
التي لو تفرسنا في ملامحها قليلاً سنجد أنها صاحبة المنزل لكن بقلم محمد بركة.

قد تختزل اللحظة لتصبح مجرد إحساس لغوي باسم « ماري » فتفقد شيئاً من العمق الإنساني بضغوط من الافتعال اللغوي ، وقد تمتد اللحظة إلى مجموعة من الصور والخيالات المتتالية مثلما في القصتين الأخيرتين حيث تبدوان ككتشاز خارج على إيقاع المجموعة وبين هذا الاختزال والامتداد تتوالى النصوص في إيقاع موسيقى محبب ، وتتشى بعالم من الفسيفساء أو اللحظات المتماسكة في ذاتها ، لايتعامل معها القاص كمحترف ولايظيل الكلام ليثبت أنه كاتب متمكن ، كما أنه لايدعى اهتماماً بقضايا كبرى - حتى إن وردت عرضاً - لأنه يكتب من وجهة نظر الهواية المحبة ، التي تمارس حقها في الوجود دون أن تثقل على أحد.

لذلك لانبالغ إذا قلنا إن محمد بركة وصاف للحظة المنسربة عبر الذاكرة والزمن الغائم البعيد .. وصاف للقطعة التي رآها قديماً بدهشة الطفولة الأولى ، التي لم تكن بريئة تماماً !!..

لقد تواءمت تقنيات الاتجاه التأثيرى مع عيون الطفل الكامنة وراء المشاعر والصور المختلفة . فالبطل والراوى هو طفل يتكلم عن شخصه المحبة والاليفة في نطاق الأسرة مثل : الجد والاب والام (التي تكررت كثيراً) والاخ المتوفى والجيران.

هذا الطفل يمارس ألعاب الطفولة مع الأصحاب ، ويقابل المطر بالفناء ويستخدم كثيراً كلمة ولد ، أو « ميل » بجانب شخصيات الكرتون الشهيرة مثل فيجا وأبى الغضب . وببراءة يلعب (الراوى / الطفل) بالصورة البلاغية جنباً إلى جنب مع الكلمات العامية الركيكة . فمثلاً الكلمة المثورة عن سيدنا عمر رضى الله عنه « أرى الشاب فيعجبني » تتحول إلى « أرى البننت فتعجبني ومدرسة البنات يكنى عنها بمملكة الدانتيل الأبيض . هذا اللعب بمستويات لغوية متعددة يتوازى في بساطة مع خلط الموروث الشعبى بالموروث الدينى ، لعبة اسمها الكتابة يمارسها طفل ، لن نملك إلا أن نصفه بالبراءة ، رغم أنه يمتلك عيونا لاقطة وثاقبة ، ذات إحساس حى ويقظ يتدفق في سهر.



« أذكر أنه يوم الاحتفال بمولد النبي ، أى يوم الحلاوة وذكر البط الشينى والبهجة الموسمية .. » هكذا يحدد الراوى تاريخ وفاة أخيه بدقة وبعمقوية ، وعندما يرسم لنا مكان الحادث يقول فى منتهى السلاسة واصلاً الكلام : « والبهجة الموسمية التى تترقبها عزبة نائية . لم يكن بطل الحرب والسلام يعرف عنها شيئاً » أى أننا فى عزبة نائية يوم مولد النبي عليه السلام فى الثانى عشر من ربيع الأول ، فى نهاية السبعينيات حين أطلق على الرئيس السادات هذا اللقب . كل هذا يختزله الراوى فى سلاسة وصدق .. يكون النقد الاجتماعى أو التهكم السياسى كامناً وراء السطور لكن مايشغل القاص أكثر هو حضور (اللوحة / اللحظة) .

إنه عالم طفولى قائم على المؤقت والدائم .. المرح والخوف .. البراءة وقليل من الخبث .. الجنس فى عفويته وبساطته .. عالم انفعالى إما أن يتورط المتلقى فى لحظاته وإما أن يقف على ضفة النهر الأخرى . وأبداً لن تكون هناك جدوى من التعاطف مع النصوص دون أن نلج إليها ونحن حفاة وأبرياء .. مجرد أطفال صفار يجوبون الشوارع والحارات فى يوم مطير ، يقتنون تشييداً خالداً بكلمات مبهمه ، قيل أن ينكشف عنهم غطاء واقع مرير دأب دائماً أن ينهر فينا طفولتنا ، بنفس القوة التى دأب بها محمد بركة أن يستعيد معنا الطفولة بعيون طفل لاتموت ، ولاتقتل بداخلها الدهشة أبداً ..

ضراوة المبتسم

وليد طلعت، إيهاب خليفة، حنان جودة، ميرفت العزوني

محمد داود، محمد طلبة، عمرو النوساني

تقديم:

فريد أبو سعدة

هذه أصوات جديدة . وإن لم يكن تماماً! بمعنى أن بعض هذه الأصوات قد نشر في مطبوعات لكنها محاصرة ولا تصل إلى أحدا. عرفت هذه الأصوات من خلال اللقاءات العديدة التي تنظمها قصور الثقافة والتي أتاحت لي، ولغيري، اللقاء بهم، هؤلاء الممسوسين بالكتابة، المتلثين، حتى الحافة، بالرغبة في النظر إلى الجهة الأخرى من الألم! والتنزه في حداث الجنون.

أبدو لمآحة لأبعد ما يكون

وابتسامتي

التي تداعب وجهي

تكسبني ضراوة عالية

في مخالطة الآخرين

هكذا تواجه حنان جودة العالم، بضرارة المبتسم، المسلح بما يكفي من اللماحية!.

نعم ما الذي يمنع من رؤية مفارقة، وهل من ضرورة لأن نأخذ شكل الحاقدين الكارهين إذا ما كنا نريد مواجهة العالم!؟.

ومع ذلك سأختار لها قصيدة أخرى
فى « معركة » عمرو النوسانى يقول عجوز:
أقاتل فهداً منذ سبعين عاماً
فتقول امرأة، صبغت شعرها بذهب الحناء:
أقاتل ضبعاً منذ خمسين عاماً
وهكذا نكتشف أن كلا منا يقاتل عدواً لم يختره.
وبطريقة أخرى يقول وليد طلعت:
أحياناً

يصارحنى أحدهم
أنه- منذ زمن بعيد-
قد قتلنى مرة!
يقول: لم أكن أقصد
ويبتسم كثيراً لعوبتى السائلة
غير أننى لا أكاد أتوجس
حتى يفعلها!

أنها التنقلات المدهشة للاستعارات ، التنقلات التى تجعل الحياة والموت
يتربصان بنا بأشكال غاية فى التنكروالتمويه، الاستعارات التى تؤكد أن
الحقائق لا تزال قادرة على إثارة الدهشة.
يقول إيهاب خليفة:

ما زلنا نتذكر
تضرعات التورطة المساقة فى احتفال
الأمس

كانت جميلة
ثلاثة أبواب ، وشمعة واحدة
من أجلها حشرونا فى درج جانبي
وأخلو لها عدة أرفف
كانت تقول:

لم أكمل يوماً واحداً

لا تقطعوا أوصالى

دعوتى أموت طبيعياً بالعنق والفطر!

أما ميرفت العزنى فتضعنا فى « الاختبار » الصعب ، تضعنا فى طقس غامض وسرى لذات تراقب العالم بفرح والعالم لا يأتبه بها ولا يشعر بوجودها ، ذات محاصرة لا تجد الطريق إلى التواصل الحميم مع الحياة ، لا تجد الباب الذى يمكنها من الخروج إلى العالم . هل هى استعارة أخرى للموت صانع الاستغارات.

قصت تأخير الكلام عن محمد طلبة ومحمد داود ، أولاً لأن ما ننشره لهما هنا هو فقره من رواية كل منهما رواية مصمد طلبة بعنوان « خط ثابت طويل ».

ورواية محمد داود بعنوان « قف على قبرى شويًا »!

السبب الثانى هو هذا المذاق الحريف الذى يميز كلا منهما وإن بطريقتى مختلفتة وفى اتجاه مختلف أيضاً ، والسبب الثالث ، فيما أعتقد ، هو أن كتابات الآخرين ، فى الشعر أو القصة ، تتشوف إلى التقطير وتميل إلى التجريد بينما ينحو كل منهما إلى الاغتراف من الواقع الحى ، اغتراف الثرى الذى يملك الكثير من تفاصيل المواجهة بين الموت والحياة ، اغتراف يجاور القسوة بالتسامح ويؤاخذ بين الغناء وسلالم موسيقية مهجورة ولا تكاد تستريح من مخالبة الخبرة الإنسانية لك كلما أمعن فى القراءة .

يقول طلبة « لماذا تكذب عليه ؟! لماذا . أنت تعرف تماماً أنه سيموت إن لم يكن اليوم فغداً ، وإن لم يكن غداً فبعد عام أو اثنين . هالك لا محالة . لا تود أن تنطقها . تهرب من حروفها من وقعها على سمعك . لكنك تجابه كل يوم عشرات المرات ، قل لى إذن يا طارق ماذا تمت جلدك الآن ؟ » .

إنه الموت ، مرة أخرى ، يقبع تحت الجلد ، هكذا ، كخط ثابت طويل .

يقول محمد داود : « وماذا يحدث لو عصلجت ولم تكن الكبد جاهزة قبل

عودته من المدرسة أو من الدرس أو قيامه من النوم .. الأكيد إضراب عن المذاكرة ،فتبدأ مفاوضات صلح يتلطف عبده ، الوسيط الوحيد دائماً ، بسياسة وسط العصا ، يسرد الحكم والمأثورات التي حفظها عن جد مات «البطن قبر تتساوى فيه الأطعمة» «البطنة ضد الفطنة» .بص يصه مسترضية لإفهامه أنه معه وإنما هو كلام ليرضيها . ويبص لها لتفهم أنه معها وإنما هو كلام ليرضى الولد وإذ ينظران إليه معاً يرسم وجهه ويحور عينيه بحيث يأخذ كل واحد ما يريد» .

منذ العنوان «قف على قبرى شويا» ومع التوغل فى السرد نحن أمام تجربة لغوية لافتة، وإن لم تكن جديدة بالطبع ، لتطويع العامية فى أداء لقطات من الحياة ، يتطلع إلى أن تكون بصرية إلى حد الفوتوغرافيا . هذه الأصوات لن أخرج من وصفها بالجديدة ، فهي جديدة بمعنى الابتداء وجديدة بمعنى الجدة فى أن .

وأنا أقدمها. هنا لنترك للقراء أن يختلفوا معى أو يتفقوا ، لكننى سعيد بوضعها فى الضوء الغامر «لأدب ونقد» مدركاً أنها كعروق الذهب تحتاج إلى الصقل والتشكيل والنخل والسبك، ومدركاً أيضاً أن هذه أمور تقوم بها خبرة الكتابة والرغبة فى الإجابة.

سعيد لأننى أشير إلى هذه الأصوات آملاً أن تقوم بما ينبغى لها، وأن يقوم النقاد بما ينبغى عليهم!!
وهذا حسبى أمام القراء.

مزيد من الوقت

إيهاب خليفة

-١-

الأصدقاء..

الذين يسمون الموت بأسماء غير حقيقية

رغبة في التخفى

من أصابعه المشرعة..

أمهاتنا القديعات

اللائي سميننا صفاراً

بأسماء البنات..

إنه العرص على استمرار التنفس

ما يشغلهم

-٢-

نستطيع النوم أخيراً

بعد محاولات يائسة

للتخلص منهم

العالقون في جواربنا

مصرين على تمطيم سوقنا

قبل المغادرة

-٣-

سيكون دمار

بيننا نفتسل من أدراننا

في حجرات ضيقة لن يقطنها سوانا

الغناء الرخامى الواسع

الذى نملك وروده

سوف يمتلئ

الذين نحبههم سيأتون

متخلين عن رغباتهم فينا

سيكون شيع

ولن نظلماً أبداً.

-٤-

الماهرة

تستطيع إنجاب عديدين

لكنها لا تقاوم

قتلهم المدهش

ستصنع أبناء

يحملون انسيابية ذقتها

وأنفها المنمنم

بشعر راسخ

وأعضاء ذكورة ساخنة

ستصنعهم..

بمجرد

أن

يأتى..

-٥-

الولد فى المجرة الداخلية

يكي

حين تحدث صديقه عن سمنت المفرطة

ويكى

حين رأى وجه حبيبته فى السماء

يتاكل

غمى عينيه

ورقص..

-٦-

المعجزة

لأنصاف أرباب صفار

يتعلمون المشي بلا اتكاء على الحواشي

ودون تلويث ملابسهم بالطين

بسرعة خارقة

ينفصلون عن الحركة

وتتحد ملابسهم

الخوف

إنه الرابط الهائل

أيها الأرباب الصفار

-٧-

ستودعك السماء أيتها الأخت

بدموع متطايرة

تغسل ثوبك المتمزق

- إنه ليس مطراً

هكذا قال الرجل الطيب

أنت شهيدة يا أخت

لم يكن مطراً أبداً

هكذا قال.

-٨-

أحياناً

يصارحني أحدهم

أنه- منذ زمن بعيد-

قد قتلني مرة

يقول

لم أكن أقصد

ويبتسم كثيرا لعودتي السالة
غير أنني لا أكاد أتوجس
حتى يفعلها
-٩-

من لهؤلاء العفاريت الصفار
فتشوا حقائبي ، جيوبى
وأدخلو أياديهم الشقية فى قلبى
ليخرجوا صورهم القديمة
من لهم؟
وأنا واقف على قدمين مازلت
لرعايتهم.

ودائما .. أرقص على جثتى حنان جودة

الرقص على أطراف الحقائق
أكثر خبثا..
والإمساك بالزئبق مستحيل
هكذا .. أُمى تقول
وبيدى اليسرى أسجل
«سرى للغاية»
لم أزل جالسة
نحبب عينى سريرى
أتخيله..
لطيفا جدا معى
يمنحنى اشتعالا خرافيا
مع دخان سجايره المفرط

يورطنى أحيانا فى سذاجة مرغوبة
حي يحدثنى عن « تريزا »
-السلحفاة التى أحيها-
وكيف كان يعد ترنحاتها
وهو يرشف فنجان القهوة السادة
-مثل حياتى تماما-
ويسلم شفتيه لعزف منفرد
يتخيلنى حافة الفنجان
فياكلنى لهفة
ناسيا إطعامها.
« تريزا الطيبة »
التي لم تقترف ذنبا واحدا
غير أننى أحضرتها
منذ عام واحد
ومعها آخر.. ناضجا تماما مثلها
وطيبا أيضا
ومارست عليهما سلطاتى
بأن أرسلتها بصورة
مشرفة للغاية
لتسكن بيته
بعد أن لقنته أكذوبة أنها
أميبية المعيشة
تريزا الذكية الخبائة
أجبرتها على تعلم السرقة
والتلصص
فأصبحت متفردة فى نقل الأخبار
ممتعة حقا

حين تصفه وهو يبدل ملابسه
بعد أن تضع يدها على مواطن
الاختلاف والتميز في جسده
فأراه على حالته وكأني معه
أتسوله على أنغام-

Very Rhumantic-

أمتلئ امتلاء غير هين بالمرّة
آه..

جعلتني أحبه دون أن تدري
منتقمة مني
ردا على ما فعلته بقرينها
الذي يكبرها ببلاطة واحدة.

**

« تريزا »

أصبحت أُمّي لا تثق بي
بعد أن أصابتني تخمة
غير عادية
فأصبحت محشورة في ملابس
قصيرة جدا
رأسى بلارقة
بدانتى مرهقة جدا للنظر
سيحتاج الجميع لنظارات خاصة جدا
لإمكانية التعامل معي
ربما..

في ليلة قادمة سأخبرها
-بصرامة-

أن السبب في بدانتى
هو العناق المتكرر

**

لا أحد سيشعر بانقلابي
لأنى وحيدة حقاً
كما أتى كل ليلة
أصفق الباب
صفقة غير ليونة
أدير المسجل
أرقص احتفاءً بمجيئه..
للغرفة البعيدة المخصصة لغرف المنزل
-الوحيدة التى تتصلح معى-
فأشعر بسعادة استثنائية
أحاول ممارسة الرقص
ناسية أنى بدينة
أترنح كسلحفاة
أنقلب على ظهري
أحاول ضبط التوازن
أتذكر قول أمي
لو انقلبت السلاحف على ظهرها
لغثرة ما:.... تموت
..
وأموت بجلدى
ولأن الغرفة بعيدة.. وحيدة
لا أحد سيشعر
بانقلابي

الاختبار ميرفت العزوني

همت بالخروج لم تجد الباب ، هزت رأسها ، ضحكت في داخلها . تنقلت بنظراتها في أرجاء الغرفة ، لا أثر له . جرت إلى الشرفة ، فتحتها ، رأت الشارع ، المدرسة التي تلتصق بالبنية التي تسكن فيها ، عادت إلى الداخل ، دقت بقوة بكلتا يديها على الجدران نادت على أمها ، أبيها ، أخواتها ، لا أحد يجيب .

هرولت ثانية إلى الشرفة تستغيث بالجيران ، لوح لجاره في العمارة المواجهة لها ، دخلت وأغلقت النافذة . أشارت لأخرى ، تجاهلتها . في حيرة قالت في نفسها : لم يبق لي غير هؤلاء الأطفال ، نادت عليهم ، رفعوا رؤوسهم الصغيرة ابتسموا للعصافير المعلقة في الفضاء وانطلقوا داخل الفصول .

ظلت واقفة ، رأت رجلا قادمًا ، بعد تردد ، ألقت بأصيص الزرع ، سقط بجانبه ، تحرك بعيداً عنه وواصل السير .. أجهشت في البكاء ، عجزت عن استيعاب الأمر ، تمسست جسدها لتتأكد من وجودها ، بحلقبت في الحجرة ، أقسمت أنها هي ، نفس السرير ، الدولاب ، الملابس لكن أين الباب...؟
أين الباب...؟

تأملت الساعة ، جزت على أسنانها ، الوقت يمر لديها مقابلة هامة من أجل وظيفتها الجديدة وعليها اجتياز الاختبار اليوم . فكرت في حل آخر . خلعت كيس الوسادة ، علقت على شماعة ، خرجت رافعة رايتها ، حركتها يمينا ويسارا لعل أحدا يجيرها ، سمعت صوت بائع الخضار . بلعت ريقها ، سألت : بكم الخضار ، لم يجب ، وزن لجارة لها ثم حمل بضاعته وغادر المكان ، صرخت بعزم ما فيها ، ظلت تصرخ حتى أنهكها التعب ، جلست على أرض الشرفة ، نظرت إلى عصافير حط بجانبها سألت : أتعرف أنت أين الباب!! انتابتها حالة من الهذيان ، راحت تصفق بيديها وتضحك .

قف على قبرى شويلا

محمد داود

«كبدة» ماذا، هى سمعت لكن تريد أن تلتقط أنفاسها، وتستوعب «كبدة» .. ماذا فى هذا؟» كظمت غيظها، لو أن عيده هنا لاشتكت وهى تعرف رأيه، «املثيه.. املثى بطنه .. سديه»، سوف تشتكى، لكن ليس قبل أن تسرع، لتعود بربع كيلو من النوع غير معروف البلاد، وهو بجهل الفرق بين ما أحضرت، وما عند جزار، دكانه مفتوح دائما قبالة مدخل الحارة الوحيد.

وماذا يحدث لو عصلجت، ولم تكن الكبدة، جاهزة قبل عودته من المدرسة أو من الدرس، أو قيامه من النوم؟! ..

- ثمة ما لا يمكن توقعه، على سبيل المثال مزاجه، وحرارة الجو، وهل فى يده كوب أو أمامه طبق، لكن الأكيد إضراب من المذاكرة، فتبدأ مفاوضات صلح، يتلطف عبده، الوسيط الوحيد دائما، بسياسة وسط العصا، يسرد الحكم والمأثورات التى حفظها عن جد مات «قريحة لقمانية»، «البطن قبر تتساوى فيه كل الأطعمة»، «البطنة ضد الفطنة»، «بيص بصة مسترضية لإفهامه أنه معه، وإنما هو كلام ليرضيها، ويبيص لها لتفهم أنه معها، وإنما هو كلام ليرضى الولد، وإذ ينظران إليه جميعا، يرسم وجهه، ويحور عينه بحيث يأخذ كل واحد ما يريد.

- فى غيابيه، يمائن من زرابينه، سيسب أيامه، ويلعن شكله، ودناوته، وبطنه التى تقوده، وتهافته على رغائب نفس حمقاء، وذلك فى رسالة مفتوحة لمن حضر منهم وبأعلى صوت، طالما لم تأت من عند الباب إشارة تحذر من حضوره.

- فى بطن بهيمة الليل، مع نعيمة فقط، وبعد أن تعيد بالتفصيل كل ما كان يتعالى همسه المحدد لعنا العيال، وسنين العيال .. كبيرهم وصغيرهم ..

- عندما يأتى آخر العام، وستظهر النتيجة، فيذكروهم بالواقعة، ومثيلاتها، سوف يكون مؤثرا للغاية وهو يقول بصوت تهدج بالكاء: «منكم لله.. أنتم السبب .. منكم لله»، حملهم أمام الله وزر نتيجة العام الماضى، وانتقلت عدوى

البكاء منه إلى نجوى ،حاول عبده وحاولت نعيمة أن يتماسكا، وفشلت نعيمة ، بكت ، فيكى أمجد، وانصرف حسين، أما أحمد وجمال فلم يكونا موجودين ساعتها..

رائحة فضيحة اندلعت من ربيع كيلو كبدة، فور أن لسعته نار طاسة ، رائحة مماثلة لتلك التي من عشرين كيلو، ولنجوى أنف صغير يشم كائ أنف آخر ، « ماما .. ماما » لعينيتها تأثير يصهر أي قلب ،فما بالاك بقلب أم ، دون هس بالصوت ، وضعت إصبعها على شفتيها ،« لا تقولى لأحد » أعطتها قطعة احتواها الفم الصغير واحدة ،الكزتها .. بدون غموس يا مجرمة .. بدون غموس ! خبيرة أنف أمجد أكبر من نجوى سكنت بمكعب فى حجم ربيع علبة كبريت، وحمل أمانة لأحمد الذى هو فيما يعلمون هارب من ظلمة صالة مزدحمة إلى سطح مضئ، وفيما لا يعلمون ،جالس قرب ثقب فى جدار حظيرة أرانب مظلمة ، يمكن النظر منه إلى بيت جيران ، بالضبط فى مكان خاص تخلع فيه الهدوم ،بعضها أو كلها « ماذا تريد ؟ » خبيث هذا الولد أمجد، اضطراب وشيخط تماما كما خطط .. لا تتسلل هكذا مرة أخرى ، ما هذا ؟! ،فى يده ٨ قطعة أكبر من ربيع وأقل من نصف علبة كبريت ،كأنه غارق فى كتاب إدارة الأعمال « كلها أنت كلها أنت » ثقة فى محلها ، وأمل لم يضب هم يا جمل مرة واحدة ، بدون غموس ، تدهرجت نجوى مثل بلية على السلم ، لتفتن، ليس لأنه أكل الأمانة لكن بدون غموس.

حتى آخر نفس جاهدت نعيمة أنفأ بلا جفون ،وعصارات هضم لا إرادية خاصة تلك الكاوية فى المعدة، ونجح شيطان فى إقناعها ألا بأس من حصة فى حجم بنان أكلتها بثلاثة أرغفة ، رغم السكر ،وأمر طبيب مستوصف بربيع رغيف، انكبست بالندم على الحبة، وثلاثة الأرغفة ، أخذتها غفوة ، وأعادتها يد ترجرجها .. ماما .. ماما .. الكبدية يا ماما ، زلزال يتقلب الأشياء ،قفزة واحدة فقط من الكنبية للطاسة ، قفزة سريعة تجاهلت الأم الظهر، والركبة ، شهقت كفرملة سيارة كادت تفرمها وهى تسرع بربيع الكيلو ، ليكون جاهزا قبل عودته ، وها هو من عند الباب استقبلته الرائحة التى بقيت حتى بعد فناء مصدرها .. ماما .. الكبدية يا ماما ..

من أكل الكبدة؟ .. زعق باسم ، والله ما أذاكر إلا بالكبدة.. نزل أحمد من السطح ، وظهر حسين وجمال ، وبذلك السؤال الذى ليس له إجابة، بدأ شجار ، كلمة من هنا ، بكلمة من هنا ، أنت قليل الأدب ، أنت عديم الإحساس ، سمعهم عبده- الوسيط الوحيد- فاندفع يفصل بينهم، انتهز دفعة فى كتفه ، ووقع مدعيا الإغماء ، يقينا أنه فى صراع بين أن يظل فى الأرض ، لينصرفوا إليه تاركين العراق ، وأن يسرع قبل أن يكون غياب جسده كحاجز مادي، سببا فى مزيد من الالتحام ، ويقينا أنه اختار مواصلة الادماء ، لكنهم لم يلتفتوا إليه فلم يجد بدأ من القيام ، مزيحا نعيمة التى انكفأت عليه ، لتقف بوجه أحمر ، وعين متسعة، وفم فاجر تفلقة بيدها اليسرى، ويدها اليمنى لا تدرى أى وضع تتخذ بنجوى تبكى فى ركن ، بينما كان إسماعيل ياسين واقفا فى طابور بملابس عسكرية ، والشاويش عطية يصرخ مغتاطا ، مخالى شل.. مخالى شل يا عسكري .. يا عسكري مخالى شل..، وأمجد يوزع اهتمامه بين إسماعيل ياسين وبينهم.

خط ثابت طويل

محمد طلبه

الرحمة من عندك ، الرقيق يجرى فى فمى كأنه ضنبور مفتوح ، ميوعة ، غثيان ، أحتاج إلى فص ليمون، فص ليمون يا خلق.. سأتقيا يا دكتور.. حقنة ضد القى، بسرعة، حقنة ضد القى ، وأود فصا من ليمون، شبعنا حقناً يا عالم دوار ، دوار ، أحشائى تطفو، لا أستطيع بصق ريقى، أبلعه يملأ فمى غيره، أبلعه ، أمبول يكسر ، ممرضة تسحب السائل إلى السرنجة، يخلعون السن، يضعون الحقن فى الكانيولا، الغثيان يزيد، سأتقيا ، سأتقيا قبل أن يندفع السائل إلى عروقى ، تدفق السائل ، أمعائى تعلق ، تعلق ، تندلق من جوفى فوق الفراش ، يلتصق بعضها فى حلقي ، أدلق جوفى ثانية.. عاملة تاتى بجرذل، غير مهم ، غير مهم ، أمرك يا دكتور ، صنعوا أمبولا آخر ضد القى، المورفين السبب؟ ممكن يا طارق ، وممكن الجلطة ، استقرت أمعائى ، هذات رغبتى فى القى، طعم جوفى ما زال يلوث حلقي ، كوب ماء لآثمضمض هاتوا

كوب ماء . يديه فى جيبيه ، ينظر فى عينى سأموت يا دكتور ، أعرف أنى
سأموت أليس كذلك؟!

-أزمة وتمر يا عم إسماعيل.

لماذا تكذب عليه ؟ لماذا ؟ أنت تعرف تماما أنه سيموت . إن لم يكن اليوم
فغدا ، وإن لم يكن غدا فيبعد عام أو اثنين . هالك لا محالة ، لا تود أن تنطقها ،
تهرب من حروفها ، من وقعها على سمعك ، لكنك تجابه كل يوم عشرات
المرات . قل لى إذن يا طارق ، ماذا تحت جلدك الآن؟!

- لماذا كنت ترفض دخول الطب؟

تعددت الكلمات داخلى ، شاحت ، لا معنى لما سوف تقول يا طارق ، كيف
تصوغ سنيئاً وذكريات ومشاعر . آلاف الجمل والكلمات ، العالم متلاطم داخل
رأسك ، فماذا تقول ؟ وكيف؟.

- أخاف الموت يا هشام .

لما سكنت عاصفة الضحك والهزل وكلمات التهكم .. أجال هشام بصره فى
الحجرة الزجاجية . قرأت اللوحة المكتوبة فوق رأسه (الجمعية الأدبية ، كلية
الطب) خلع نظارته ، كعادته قبل أن يلقي بكلمة الفصل ، نظر إلى السقف ،
حاول اختراقه قال:

-واجهه يا طارق ، اجعله أمامك كل يوم حتى تعتاده ، هذه هى الطريقة
الوحيدة لسلبه أى معنى.

الكرة الشراب الطافية تبتعد عن الشاطئ ، نمس جباهنا بأيدينا فيكسوها
العرق اللزج ، ننظر إلى بعضنا البعض ، نصوب أعيننا تجاه الكرة الطافية
وسط الترفة:

- فليتنزل أحدكم لاضارها.

- أنزل أنت.

العيون المترددة المنكسرة ترتد إلى أصحابها . الصبية الذين لم تنبت.

شواربهم بعد تدق قلوبهم فى عنف . الكرة التى استقرت وسط التربة تماما
تشدد أعينهم تماما إليها . الأيام الطويلة المهذرة فى تصنيع الكرة توخز
صدورهم . المباراة المبتورة بلا نتيجة توسوس لهم بالقفز إلى التربة
لإكمالها . الملحظات المزوجة بالعرق والصراخ ودق القلب تهددهم بالانفلات
من بين أيديهم .

- هيا نعدو إلى المنزل .

صرخت

- والمباراة؟

- نكملها فى وقت آخر .

- يا جبان .

نظر إلى متحدياً .

- هاتها أنت شا شجاع

ملا معدتى خواء هائل ، عرق بارد يزحف فوق ظهري .. تلعثمت .

- سأنزل أنا يا طارق .

توقف سعيد .. هيا يا سعيد هيا ، لم يبق بينه وبين الكرة سوى ذراعين
أو ثلاث . لماذا توقف الآن؟ شعوره يقطر ماء على ظهره الملوث بطحالب
سخامية اللون ، لا تخف يا سعيد هيا . ضرب بذراعيه مرة أخرى ، ضربه ،
اثنتين ، ابتعدت الكرة قليلا من أثر . ضرباته ، توقف بحرك ذراعه بوهن ،
غطس ، هافر برأسه ويديه حتى ظهر ضرباته سريعة لكنه ثابت فى مكانه
، ارجع ياسعيد ، غطس ثانية ، سطح الماء هادئ . هادئ ، لا أثر لسعيد .

- سعيد يغرق

انثبثق من وسط الماء ، يدير وجهه بعنة ويسرة ، يبحث عن الهواء .

ضرب الماء بذراعيه ، أمسك بالكرة ، أدار وجهه ناحيتنا ، تشبث بها ، أخذ
يفغوص .. وعيناه ناظرتان إلى ..

المعركة

عمرو والنوسانى

تهتز الملاة الحمراء فى يدى التى خدرها التعب.. أحاول أن أشرعها فى الهواء بالطريقة الصحيحة ..حتى لا يفتك بى برأسه الفولانى وبقرونه التى تنوق لأحشائى..

تخوننى أعصابى وتنفلت الملاة من يدى وتقع على الأرض .. ينتهز الفرصة ويشن هجومه بعنفوان لا تمسه شفقة .. يضرب الأرض بحوافره فتفتت تحت قوتها بوجه رأسه وقرونه وجسده ويركض نحوى .. ولأننى أعرف أن الوقت لن يسعنى كى أستعيد الملاة. وأن أعصابى لن تعيننى على غرز السيف فى قلبه .. أركض بكل قوتى .. موقنا أنه لو طالنى فسوف يدهسنى بلا رحمة..

فى ساحة الحلبة أركض.. لم تترك قدمائى أى شبر فيها إلا ووطأتها .. وهو - خلفى - لا يكل ولا يمل .. لا يتعب ولا يهدأ .. والمتفرجون يتصايحون .. يشجعون الثور أن يدفن قرونه فى جسدى .. ويشجعوننى كى أقتله بسيفى.. لماذا هذا الشر بالتحديد الذى يصارعنى؟

لماذا لا يكون ثورا أقل قوة وأكثر نحافة وربما أيضا دون قرون ؟ .. أستطيع أن أقتله بسرعة دون كل هذا العناء والتعب .. دون أن يكون الموت أقرب منى إليه..

فى اللحظة التى ولدت فيها ولد مسمى .. عريانين كنا .. نبكى معا .. ومن الظلمة إلى النور نزلنا معا..

وفى اللحظة التى رأينا فيها الدنيا أعطونى ملاة حمراء وسيفا .. وأعطوه الموصية بأن يقاتلنى طوال العمر . حينما انتهوا من تلاوتها ركض ورائى .. كانت أقدامه - وقتها - تتعثر فى ضعفه- وكنت أحبو أمامه وأصرخ .. ماسكا ملاة حمراء وسيفا لا أدرى كيف يعينانى على مهاجمته .. بينما قرونه تنمو أمامه كل يوم وتزداد طولاً وشراسة.

كان يطاردنى طوال اليوم .. وكنت مضطرا أحمى نفسى بمحاولة قتله.. أحاوره بالملاة ويحاول تمزيقى بقرونه.. أركض حتى يكاد نبض قلبى أن يجمد .. ويركض خلفى دونما تعب .. ربما لا يتوقف إلا عندما يشعر بالجوع

..فيتركنى إلى صندوق طعامه فى ركن الحلبة .. يظل يأكل ويشرب لساعات
عدة .. تاركاً لى مساحة من الوقت لالتقاط الأنفاس وتناول الطعام .. وعندما
يشبع يشد عضلات جسمه ويستعرض ضراوته .. يشير لى بقروته فلا أملك
إلا أن أمسك ملاءتى وسيفى وأشهرهما ..

حاولت كثيراً أن أوقف هذه المعركة المستمرة منذ ثلاثين عاماً .. أشرت
إليه بأن نكون صديقين .. نعيش فى الحلبة ما تبقى لنا فى سلام .. لكنه
نطحنى فى جانبى وكاد أن يطحننى لولا براعتى- بالممارسة- فى التخلص
منه .. أشرت إلى المتفرجين بأننى زهقت من المعركة .. وأننى أريد أن أرتاح
ما تبقى لى .. لم يصغوا إلى كلامى- توسلت إليهم أن يبدلوا هذا الثور بثور
أقل قوة .. أستطيع أن أقتله وأرتاح .. لكنهم ربتوا على كفتى .. وجففوا
عرقى ..

قال عجوز ..

-أقاتل فهذا منذ سبعين عاماً

قالت امرأة صبيغت شعرها بذهبية الحناء ..

-أقاتل ضياعاً منذ خمسين عاماً .

قال شاب ذو قوة ورعونة ..

- أقاتل أسداً منذ ولدت .

قال الآخرون ..

- كل منا يقاتل دون أن يختار عدوه ..

صوت أناوره بأعضاء ما عادت تقوى على حمل الملاءة والسيف ..

وصار يضرب الأرض بحوافره فيئن من الألم .

زحف الشيب فى شعرى حتى تلاشى ..

وزحف العمر فى جسده حتى نحف وهزلت حركاته ..

سقطت الملاءة والسيف من رعدة يدي ..

وسقط بوهن جسده فوق سيقان تنوء بحمله ..

نظرت نحوه متوجساً .. ونظر لى بشفقة .. لم أرها قبلاً ..

اقتربنا معاً .. وعندما تواجها .. تبادلنا التهنئة لانهاء المعركة .

بيجرب المشى على رجل واحدة

مسعود شومان

(١) وهو بيعيط بحب

فيه حد يقدر يمشى زى

كده لوحده

وهو بيعيط بحب

وبيملس برقه على الشعر الأبيض

فيه حد يقدر يرقص زى

كده لوحده

وهو سايب ايديه تسوقه للضلعة

زى طير خفيف

بيجرب بناية عش

» ريش فى ريش فى ريش

ومشاغله وتوشويش

وصوصوه *

هنا لوحدى

معايا قلب صغير

على قد تنهيدى
يدوبك يشيل دموعى
فيه حد يقدر يتكلم عن نفسه زى
عن حمولة الأحلام
اللى فاضت على الصندوق
أيوه
هو ذا المجرى اللى رسيت فيه المراكب
وهى دى الحيطان اللى خربشها الرقص
سايب نقر مجروحه
وكلام حكيم
يقدر يقوله عن نفسه
وهو بيعيط بحب
وبيرقص
وبيجرب
يجرب إيه
ممكّن المشى على رجل واحدة
أو النوم على رصيف فى محطة قطر
أو المشى فى شارع طويل
ومحصراه الشبورة
ومش باين غير شفايفه العريضة
مين يقدر زى
كده لوحدى
يمشى
يفنى
ويسيب قلبه للطير الخفيف
الطير اللى زى

اللى رفرف حواليا
وأنا فرحان بلمسة طراطيف جناحه
وبعيط بحب

٢٠٠٠ ٢١-٢١ فبراير

(٢) وهو ماشى فى حاله

ماكانش بيعيط بحرقه
دا كان بيحرب عنيه
دا كان نفسه يشوف دموعه
وهى بتغسل خده من تراب الشارع
ماكانش واخذ باله
إن الحفر هاتجيب رجليه
وهو بيشاور لطير غريب
وبيقلد رفرفة الجناحين
وبيلوح كتفه
عشان يفادى الشجرة
ماكانش يعرف
وهو ماشى فى حاله
وهو بيدور على حاجة يقدر يلعبها
وتعرق فى حضنه
أو يقرر يسميها .. فينسى
إنه هابتورط فى الدنيا
المشى ببطاء ناحية شط فاضى = المحبة
المحبة !!

حكاية غامضة
مش قادر يفهم راسها من ديلها
الطموح
الخلود
مين ينجده
وهو ماشى فى حاله
بيضطبط مشيته مع دقة قلبه
وهما بيقولوا لبعضهم
لازم نكهربه
بعد مالجقوه العيال
وجرجروه على وشه
ماكانش صعبان عليه الدم
اللى نازل من راسه
دا كان نفسه يتأكد
إن قلبه لسه قادر على الفوران
ماكانش ماشى
ولاكانش مع حد
دا كان بيراقب غيمة
قربت تلمس خده
وهو بيحاول يطير..

١٤ فبراير ٢٠٠٠

(٢) وهو ببيزك تحت المطر

عن إيه

عن رجل بتذك تحت المطره
 وبتعدى النقر
 وبتهش البط بعيد عن باجور الحرت
 وفي إيه
 فى ليلة باردة من أمشير
 قدام منقذ
 وغيمة واقفة
 وخیال بيتحرك ببطء ع الميطة
 على إيه
 على ورقة
 طيرها الهوا ناحيتى
 من إيه
 بالذمة
 دا سؤال !
 إزاي
 زى ما انت شايف
 قدام منقذ باادفى
 وعلى ورقة
 زى أى حد
 بجرّب أكتب عنه قصيده
 وهو ماشى يزك تحت المطره.

* من شعر صلاح جاهين



الطريق

جمال راغب الدريالي

بحران يلتقيان لو أبكى معك
بحران يلتقيان لو أمضى إليك
بحران يلتقيان
وجهك .. لحيتك
بحران لو أفتح
جميع الأوردة
وأبوس عرقاً من يديك
بحران .. بل أبكى معك
بحران لا أبكى عليك
هاتِ إذن ماشئتِ يا أنثى .. دمي
كأساً .. حليباً رائباً
مراً ..
مزيجاً من هطول ومن لظى
هاتِ إذن
وطناً يموت

وساقية

تمشى على سودِ الموائدِ مثلما

يمشى التوسلُ

فى أنوفٍ لم تذق يوماً إباءً

قصفُ وِباءٍ

قصفُ وِباءٍ

أسلمتُ روحى يا صديقةً فى دمي

والدمُ يُسلمُ

يا صديقةً - دون كبير -

ما يشاءُ

ومن يشاءُ

.....

.....

بحران ..

تغرينى صلاتك يا عمرُ

بحرانٍ يدفعنى

وضوءك للصلاة

.....

الخيال موعدها المعارك يا عمرُ

والخيالُ لتمشى على الأسفلتِ

بل تمشى على سودِ

السحائبِ والبروقِ

الخيال موعدها غدُ

والخيال موعدها الشروقُ

من قال إن الخيال تمشى للسلام

كذب الوشاة

.. وسيأسوا

يا أيها الشيخ الصديق

قدم على قدم

.. طريق

والخيل أصبح عندها

مرض التآث

أصبحت تخشى الخروج بغير « روج »

تغوى وتدرأ خدرها

وتموت عند فراشها

وتغيب ..

من أوج لأوج

ضحكت علينا الأغنيات

فخلنا

من غير لحن ياعمّر

ودع الثقافة والهباء

وسر بنا

متلحفين بجهلنا

وجمالنا

متوضئين بضوء سيف

كان - قبلًا -

ينتصر

متوضئين ببعض ما ياءت به

كُلُّ الْقَبَائِلِ

مِنْ خَنُوعٍ

وَمِنْ ظَفَرٍ

.....
كُلُّ الثَّقَافَةِ يَاعُمَرُ

أَنْ تَمْنَحَ الرَّاسَ الْجَمِيلَ

لِعُوسَجَةٍ

مَرَّتْ عَلَيْكَ

وَلَمْ تَمُرْ

دَخَلْتَ عُرُوقَكَ مِثْلَ طَيْرٍ رَاشِعٍ

وَمَشَتْ إِلَيْكَ بِغَيْرِ جَنْدٍ

إِنَّمَا

"سَالُومِي" ..

أَعْطَيْتَكَ الْفَرَاشَ فَلَمْ تَسْلُ

وَعَزَفْتَ عَنْ حُبِّ الْفَرَاشِ

وَكُنْتَ لَكَ

يَا أَيُّهَا الشَّيْخُ الْمَلِكُ

.....
مَرَّتْ هُنَا "إِيْزِيْسُ"

هَلْ تَهْوَى تَمْرًا؟

مَرَّتْ هُنَا « بَلْقَيْسُ »

هَلْ تَهْوَى تَمْرًا؟

مَرَّتْ "جِيُوشُ" الْمَغْلَقِينَ

.. وَكَسَرُوا

نَبْتَ الْحَيَاةِ وَأَحْرَقُوهُ

كأى طقس
من طقوس غرامهم
« قمبيز » يمشى كل ليل
للغراش
بمشعل
من شمع أعصاب القبائل
والطيوب
ويهم للذبح الخرافي الكبير

.....
يا أيها الشيخ الذي
ملا الصحارى عزتين ، وعزة
ودماً يفور
وأغنيات
علم حيولك
أن بعض الشعر مات

